

عائض بن سعد الدوسري





ابن تيمية .. والآخر!

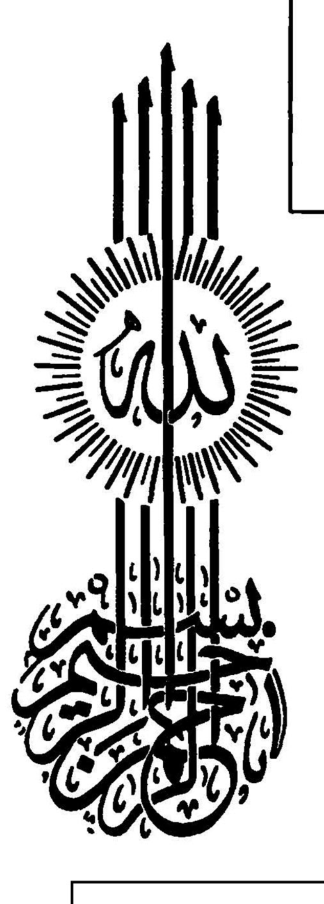
موقف ابن تيمية النظري والعملي - العقدي والأخلاقي من المخالفين وموقف المخالفين من الآخر !



دار الوعي للنشر

١٤٣٣هـ

ح عايض سعد عايض الدوسري ، 1433هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدوسري ، عايض سعد عايض
ابن تيمية والآخر (موقف ابن تيمية النظري والعملي -العقدي و الأخلاقي من المخالفين
وموقف المخالفين من الآخر) / عايض سعد عايض الدوسري - الرياض ، 1433هـ
150ص ؛ .. سم
ردمك : 3-9522-00-603-978
١ - ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم 2- الفلسفة الإسلامية أ.العنوان
٢ - ديوي189 1433/2574



الطبعة الثالثة
١٤٣٣ هـ

مركز الفكر المعاصر
٤١٦٠ طريق الإمام سعود بن عبد العزيز - حي المروج
الرياض ١٢٢٨٢-٦٦٨٢
markazfekr@hotmail.com
هاتف ٠٠٩٦٦١٤٥٣٩٨٨٣ - فاكس٠٠٩٦٦١٤٥٣٢١٥٧
الموقع الإلكتروني www.al-fikr.com

« هَذَا ؛ وَأَنَا في سعَة صَدْر لمَنْ يُخَالفُني ، فَإنَّهُ وَإنْ تعَدَّى حُدُودَ الله فيَّ بتَكْفير أَوْ تَفْسيق أَوْ افْتِرَاء أَوْ عَصَبيَّة جَاهليَّة ؛ فَأَنَا لَا أَتعَدَّى حُدُودَ الله فيه ، بَلْ أُضبط مَا أَقولُهُ وأفعلُهُ ، وَأَزنُهُ بميزَان العَدْل ، وَأَجْعَلُهُ مُؤتَمًّا بالْكتَاب الذي أنزَلَهُ الله وَجعَلَهُ هُدًى للنَّاس حَاكمًا فيمَا اخْتَلفُوا فيه » .

[ابن تيمية « مجموع الفتاوي » : (٣/ ٢٤٥)] .



مُقَدِّمَةُ المُؤَلِّفِ

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، مَن يهده الله ؛ فلا مضل له ، ومَن يُضلل ؛ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومَن سلك سبيله ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين ، **أمَّا بَعْدُ** :

فإنَّ ما تمرُّ به الأمة الإسلامية اليوم من ضعف وهوان يدعو ويلح على عقلاء الأمة أن يراجعوا الأسباب الحقيقة التي تقف وراء هذا الواقع المرير ، ويبحثوا عن العوامل الأساس التي تُعيد لهم قوتهم وهيبتهم ، وتجمع شملهم ، وتُوحِّد صَفَّهم ، وتضمهم في وحدة إسلامية حقيقية تُعيد لهم الصورة المشرقة والذهبية التي كانوا عليها في صدر الإسلام الأول .

وهذه المهمة الإصلاحية الخطيرة هي المهمة الأولى الواجبة على علماء الأمة الأفاضل ، وهم على وجه الخصوص من يقع علي عاتقهم أمر إصلاح الأمة وتجديد أمرها في دينها وعلمها ومنهجها وعزتها ونعتها ووحدتها ، وإن خذلت الأمة من قبل علمائها فليس لكسرها من جبر ، وليس لمصيبها من دافع ، وليس لمرضها من معالج !

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « .. مِنْ الْقَوَاعِدِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ جِمَاعِ الدِّينِ : تَأْلِيفَ الْقُلُوبِ وَاجْتِمَاعَ الْكَلِمَةِ وَصَلَاحَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ اللهَ ـ تَعَالَى ـ يَقُولُ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١] ،



ويقـول : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمـران: ١٠٣] ، ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمـران: ١٠٥] ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ النُّصُوصِ الَّتِي تَأْمُرُ بِالْجَمَاعَةِ والائتلاف وَتَنْهَى عَنْ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ . وَأَهْلُ هَذَا الْأَصْلِ : هُمْ أَهْلُ الْجَمَاعَةِ كَمَا أَنَّ الْخَارِجِينَ عَنْهُ هُمْ أَهْلُ الْفُرْقَةِ »[1].

ولقد أدرك أعداء الأمة أنَّ هذه الأمة بوحدتها على دينها تشكل قوة لا يقف في وجهها أحد ، وهم يتوقعون تلك الوحدة ويرونها قريبة ، وهم ينطلقون في إدراكهم هذا من قراءتهم التاريخية الفاحصة التي تخبرهم أنَّ الأمة الإسلامية حينما حقَّقت أسباب الوحدة في عصورها الأولى توحَّدت بعد الشتات ، وصارت سيدة الدنيا ، ومركز العالم ، وقائدة الناس ، وهادية العالمين .

يقول المؤرخ الإنجليزي « أرنولد توينبي » بكل صراحة : « إنَّ الوحدة الإسلامية نائمة ، لكن يجب أن نضع في حسابنا أنَّ النائم قد يستيقظ »[2].

ويقول « مورو بيرجر » : « إنَّ الخوف من العرب ، واهتمامنا بالأمة العربية ، ليس ناتجًا عن وجود البترول بغزارة عند العرب ، بل بسبب الإسلام . يجب محاربة الإسلام ، للحيلولة دون وحدة العرب ، التي تؤدي

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٥١)

(٢) « الإسلام والغرب والمستقبل » ، ص : (٧٣)



إلى قوة العرب ؛ لأنَّ قوة العرب تتصاحب دائمًا مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره »[1].

ويقول المبشر « لورنس بروان » : « إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية ، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضًا نعمة له ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنَّهم يظلون حينئذٍ بلا وزن ولا تأثير»[2].

فما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى الوحدة التي تجمعها على الحق ، وتؤلف بين قلوب المسلمين ، وتجعلهم نعمة ومثالًا يحتذي به العالم في أخلاقه وسلوكه وإيمانه وقوته ، وما أشد حاجة الأمة العربية والإسلامية إلى البعد عن كل أسباب الفرقة والتمزق ، التي تُشَتِّتُ قلوبها ، وتزيد من ضعفها وهوانها .

ومن الأسباب التي تفرق بين أبناء الأمة : اختلافهم فيما بينهم بغير حق ، ووجود بعض الغلاة المتنطعين الذين يُكَفِّرُونَ الناس أو يضللونهم بمجرد مخالفتهم لِـمَا عرفوا واعتادوا عليه من أمور الدين .

ومما يُؤْسَفُ له ؛ أنَّ الأمة الإسلامية قد ابتليت في هذا العصر بأناس - هداهم الله وردَّهم للصواب - جعلوا همَّهم الأول وشغلهم الشاغل تفريق الناس ، وتمزيق أوصال الأمة ، ونبش خلافاتها ، وإعادة منازعاتها جذعة ، يسفهون علماء الأمة ، ويُضللون الناس ، بل ويُكفرون رموز الأمة ، ثم

---

(١) « الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي » ، ص : (١٩) .
(٢) « جذور البلاء » ، ص : (٢٠٢)



يتجرؤون على الله ، فيصنفون الناس الذين يدخلون النار والناس الذين يدخلون الجنة .

ولعل قائلًا يقول : كيف نصل للوحدة الإسلامية المرجوة وفي الأمة من يُسَفِّهُ كبارها ، ويُضَلِّلُ عمومها ، ويُكَفِّرُ علماءها ، ويسلك في ذلك شتَّى السبل ، وينهج مختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة ؟

ومن الأمثلة الدالة على ما تُعانيه أمتنا الإسلامية : ما يلاقيه في وقتنا المعاصر العلماءُ الأفذاذُ الكبارُ من ظلم وإجحاف في حقهم ، بل وصل الأمر إلى تضليلهم وتكفيرهم ، والقطع بأنَّهم من أهل النار(١) ، وأنَّ هذا يحدث جهارًا نهارًا من أناس يسعون - بكل أسف - إلى تمزيق الأمة ،

---

(١) **أقول** : قبل ما يقارب الثلاث سنوات ، وبالتحديد في تاريخ : (١٨ / ١٢ / ١٤٢٤هـ) كان هناك حوارٌ على (قناة المستقلة) الفضائية بلندن - يتناول (شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية) ، غير أن المتابعين لأول حلقة من حلقات الحوار صُدموا وفُوجئوا بأحد ضيفي اللقاء الذي استضافته قناة المستقلة - بأمر من رئيس جمعية أهل البيت الشيعية د . محمد الموسوي الشيعي - ، وهو الأستاذ حسن السقاف ، وهو يعلن على الملأ ودون مواربة أنَّه يهب إلى (تكفير ابن تيمية) !! وأنَّه يعتقد أن هذا الإمام الكبير (لا يستحق دخول الجنة) !!

هذا ما سمعه الناس ورأوه من ضيف المستقلة الأستاذ حسن السقاف - هداه الله - ، وبعدما كان المتابعون ينتظرون تشنيف أسماعهم بسيرة ذلك العلم الكبير من أعلام الأمة وقدوتها ، إذا بالحلقة تذهب في مناقشة هل هذا الإمام في عداد المسلمين أو أنَّه من زمرة الكافرين !! وهل يستحق دخول الجنة أو لا !!

أقول : لعل العقلاء الذين سمعوا كلام الأستاذ السقاف في المستقلة رجعت بهم الذاكرة إلى الوراء ، واستحضروا حدثًا مضت عليه قرون متطاولة هز أفئدة العلماء وآلمها ، حين أقدم متهور قد أكل الحسد والغل قلبه ، فأعلن أن كل من أطلق على (ابن تيمية) لقب (شيخ الإسلام) ، فهو كافر !! ما أشبه الليلة بالبارحة !



وتشتيت وحدتها ، والتشكيك بعلمائها ، و التحقير من قدرهم ، وسلبهم حقوقهم .

ومن أبرز الذين ظُلِمُوا كثيرًا وتُعُدِّيَ عليهم بغيرِ حقٍّ ابنُ تيمية ـ رحمه الله ـ ، فقد ابتلي شيخ الإسلام في عصره ببعض الغلاة المتنطعين ، الذين اعتدوا عليه وكفَّرُوه وآذوه في دينه . ومع ذلك كله ، فإنَّه لم يقابلهم بالمثل ، ولم يعاملهم بنفس معاملتهم له ، بل كان مُستنًا في تعامله معهم بالكتاب والسنة .

وذلك المنهج الذي عمل به ابنُ تيمية مع مُخالِفيه ، كان نابعًا من حبه للخير لجميع الناس ، وحرصه على وحدة المسلمين ، وتغليبه مصحلة الأمة الإسلامية على نفسه وحقوقه الشخصية ، فكان يغفر لهم إساءتهم له ، وكان يعفو عنهم حُبًّا منه للعفو والتسامح ، وطلبًا لوحدة الأمة وجمع كلمتها .

يقول ابنُ تيمية : « هَذَا ؛ وَأَنَا فِي سِعَةِ صَدْرٍ لِـمَنْ يُخَالِفُنِي ، فَإِنَّهُ وَإِنْ تَعَدَّى حُدُودَ اللهِ فِيَّ بِتَكْفِيرٍ أَوْ تَفْسِيقٍ أَوْ افْتِرَاءٍ أَوْ عَصَبِيَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ ؛ فَأَنَا لَا أَتَعَدَّى حُدُودَ اللهِ فِيهِ ، بَلْ أَضْبُطُ مَا أَقُولُهُ وَأَفْعَلُهُ ، وَأَزِنُهُ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ ، وَأَجْعَلُهُ مُؤْتَمًّا بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ وَجَعَلَهُ هُدًى لِلنَّاسِ حَاكِمًا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » [1].

وقال أيضًا : « فَلَا أُحِبُّ أَنْ يُنْتَصَرَ مِنْ أَحَدٍ بِسَبَبِ كَذِبِهِ عَلَيَّ ، أَوْ ظُلْمِهِ وَعُدْوَانِهِ ، فَإِنِّي قَدْ أَحْلَلْتُ كُلَّ مُسْلِمٍ ، وَأَنَا أُحِبُّ الْخَيْرَ لِكُلِّ

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٤٥) .



الْـمُسْلِمِينَ ، وَأُرِيدُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ الْخَيْرِ مَا أُحِبُّهُ لِنَفْسِي ، وَالَّـذِينَ كَـذَبُوا وَظَلَمُوا ؛ فَهُمْ فِي حِلٍّ مِنْ جِهَتِي »[1].

لكن مما يُؤْسَفُ له أنَّ منهج التسامح الذي سلكه ابنُ تيمية مع مخالفيه لـم يقنع بعض المتطرفين والغلاة في زمنه وفي زماننا أيضًا ، حيث إنَّهم استمروا في منهجهم الإقصائي ، وتواصوا على تكفير ابن تيمية ، بل وعلى تكفير أكثر أهل القبلة !!

ومِمَّا يُؤْسِفُ كلَّ غيور على دينه وأمته ، أنَّ هؤلاء الذين يتطاولون على علماء الأمة بالتفسيق والتكفير ، لا يزالون يعملون بجدٍّ في شرخ بناء الأمة ، ونشر ثقافة التكفير والغلو فيه ، وفي نفس الوقت يحبون أن يتشبعوا بما لم يعطوا ، فتراهم يظهرون بصورة مغايرة لحقيقتهم ، فيَدَّعُون أنَّهم أهل العقلانية والتسامح والتنوير ، ويتهمون غيرهم بالغلو وينسلون منه !

ومن مسلسل اتهاماتهم المتواصلة بحق ابن تيمية اتهامه زورًا أنَّه أساس الغلو والتكفير ، وأنَّه المؤسس للتطرف ، وأنَّه ناشر ثقافة التكفير والإقصاء ، إلى غير ذلك من التُّهم الباطلة !!

ومن منطلق الدفاع عن الحقيقة ، والذبِّ عن علماء الأمة الربانيين ، أحببتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم هذه الوُرَيْقَات المتواضعة لبيان حقيقة موقف ابن تيمية من المخالفين ، نظريًّا وعمليًّا ، ليقف

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (٢٨/ ٥٥-٥٦) .



القارئُ الكريمُ بنفسه على حقيقة مذهب الرجل من خلال قوله وفعله[1] .

وفي هذا البحث قدَّمت للقارئ الكريم بعضًا من نصوص المخالفين التي تحكي موقفهم النظري والعملي من (الآخر) ؛ ليحكم بنفسه بعد ذلك ، وليرى مَن الذي ينشر ثقافة التكفير والإقصاء ؟ وكما قيل :

وَالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ … وَبِضِدِّهَا تَتَبَايَنُ الْأَشْيَاءُ

وقد قسمت هذا البحث إلى خمسة فصول ، كما يلي :

الفصل الأول : مصطلح الآخر .

الفصل الثاني : في ظلال سيرة ابن تيمية وشخصية .

الفصل الثالث : موقف ابن تيمية من تكفير المسلمين .

الفصل الرابع : سيرة ابن تيمية العملية مع مخالفية .

الفصل الخامس : موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج .

وصدق الإمامُ الحافظُ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ ، حينما قال بعد الثناء العاطر على ابن تيمية ، ما نصه : « الواجب على من تَلَبَّسَ بالعلم ، أو كان له عقل ؛ أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشتهرة ، أو من ألسنة

---

(١) هذا البحث عبارة عن جزء مستل من كتابي : « هكذا تحدث ابن تيمية » ، ورأيت أن أفرد هذا الموضوع في هذا البحث الصغير لأهميته .



من يُوثق به من أهل النقل »[١].

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفق الجميع إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يجمع كلمة الأمة على الحق، وأن يُوَحِّدَ قلوبها على كلمة التوحيد الخالص، وأن يُعِزَّهَا بدينه، وينصرها بتأييده ونصره، وأن يعليها بين الأمم، لتعود كما كانت منبر حق ومصباح هدى.

كتبه

عائض بن سعد الدوسري

المحاضر بجامعة الملك سعود

قسم الدراسات الإسلامية

الرياض ١ ربيع الأول ١٤٢٨هـ

AYEDHI_D@HOTMAIL.COM

(١) « الرد الوافر »، ص: (٢٤٨).

الفصل الأول
مصطلح الآخر

« هَذَا ؛ وَأَنَا فِي سعَة صَدْر لمَنْ يُخَالفُني ، فَإِنَّهُ وَإِنْ تَعَدَّى حُدُودَ اللهِ فِيَّ بتَكْفِير أَوْ تَفْسيق أَوْ افْتِرَاء أَوْ عَصَبيَّة جَاهليَّة ؛ فَأَنَا لَا أَتَعَدَّى حُدُودَ اللهِ فِيه ، بَلْ أَضْبُطُ مَا أَقُولُهُ وَأَفْعَلُهُ ، وَأَزِنُهُ بميزَان العَدْل ، وَأَجْعَلُهُ مُؤْتَمًّا بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ وَجَعَلَهُ هُدًى للنَّاس حَاكِمًا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه » .

[ابن تيمية « مجموع الفتاوي » : (٣/ ٢٤٥)] .



تمثل الألفاظ والمصطلحات أهمية بالغة الخطورة في كلِّ فنٍّ وعلمٍ ؛ لأنَّ هذه الألفاظ والمصطلحات تمثل مِفتاحًا للعلوم والمعارف ، فهي أداة للبحث ومفرادات للفهم ، يتعاطها العلماء في كلِّ فنٍّ وعلمٍ ، ففهم أي علم من العلوم مبني على فهم ألفاظه ومصطلحاته ، وفهم تلك الألفاظ جزء من المنهج العلمي ؛ لأنَّ المنهج لا يستقيم إلَّا إذا قام على مصطلحات دقيقة مفهومة محددة ، تُؤدي إلى حقائق علمية صادقة ؛ لأنَّها تُعَبِّرُ تَعبيرًا حقيقيًّا عن العلم الذي تنتمي إليه .

واللغة - بشكل عامٍّ - هي وعاء الفكر بما تحمله ألفاظها من معانٍ ومصطلحات ، مِمَّا جعل عملية تحديد معاني الألفاظ في غاية الأهمية ، وقد كان من أسباب اللبس والتشويش الفكري دخول مفردات أجنبية تحمل مفاهيم مختلفة ومختلطة ، تجمع أمورًا إيجابية وأخرى سلبية ، مِمَّا جعل الناس في حيرة منها والتباس ، مما يحتم على العلماء وأهل الفكر تحديد معاني هذه الألفاظ خاصة إذا كانت متصلة بالعلوم الشرعية (١) .

تبيان معاني الألفاظ المجملة مهمة المُفَكِّرِ والعالِمِ ، بسبب ما تحتويه من معانٍ مهمة وخطيرة ، فالعبارات لا قيمة لها دون المعنى ؛ لأنَّ اللفظة قد تدلُّ على شيء مستقبح في موضع ، وشيء مستحسن في آخر ، ومن هنا جاء البحث في معاني الألفاظ ومدلولاتها تحقيقًا لضبطها وتحديد معانيها(٢) .

---

(١) انظر : « مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر » - عبد الرحمن الزبيدي ، ص : (٥٠٦ - ٥٠٧) .

(٢) انظر : « دلائل الإعجاز » - عبد القاهر الجرجاني ، ص : (٤٣ - ٤٨) .

يقول ابن تيمية : « الألفاظُ نوعان :نوعٌ مذكور في كتاب الله وسُنَّةِ رسوله وكلام أهل الإجماع ، فهذا يجب اعتبار معناه ، وتعليق الحكم به ، فإن كان المذكور به مدحًا استحقَّ صاحبه المدح ، وإن كان ذمًّا استحق الذم ، وإن أثبت شيئًا وجب إثباته ، وإن نفي شيئًا وجب نفيه ؛ لأنَّ كلام الله حقٌّ ، وكلام رسوله حقٌّ ، وكلام أهل الإجماع حقٌّ . . . وأمَّا الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع ؛ فتلك لا يجوز تعليق المدح والذمِّ والإثبات والنفي على معناها ، إلَّا أن يتبين أنَّه يُوافق الشرع »[1].

وقد بيَّن العلماء عند مناقشتهم أيّ رأي أو فكرة ، أنَّ أسباب الخلاف بين العلماء والطوائف ترجع في أصلها إلى استعمال الألفاظ المُجملة ، والمعاني المُبهمة ، فكان أحدهم يستعمل اللفظ بمعنى ، ويستعمله الآخر بمعنى آخر ، فيدبُّ الخلاف ويحتدم النزاع ، ولو فصل ما في اللفظ من إجمال وما في المعنى من إبهام ، لَاتَّفقتِ الكلمةُ ، ولَـمَا حصل ما حصل من خلاف ونزاع وتراشق بالتكفير والتبديع[2].

يقول الإمام ابن القيم : « أَصْلُ بَلَاءِ أَكْثَرِ النَّاسِ مِنْ جِهَةِ الْأَلْفَاظِ الْـمُجْمَلَةِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ ، فَيُطْلِقُهَا مَنْ يُرِيدُ حَقَّهَا ، فَيُنْكِرُهَا مَنْ يُرِيدُ بَاطِلَهَا ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَنْ يُرِيدُ حَقَّهَا ، وَهَذَا بَابٌ إِذَا تَأَمَّلَهُ الذَّكِيُّ الْفَطِنُ رَأَى مِنْهُ عَجَائِبَ ، وَخَلَّصَهُ مِنْ وَرَطَاتٍ تَوَرَّطَ فِيهَا أَكْثَرُ الطَّوَائِفِ »[3].

---

(١) « درء تعارض العقل والنقل » : (١ / ٢٤١) .
(٢) انظر : « الإمام ابن تيمية وقضية التأويل » ، د . محمد السيد الجليند ، ص : (١٣٨) .
(٣) « شفاء العليل » : (٢ / ٦٦٠) .



ويقول ابن تيمية : « وَمَا تَنَازَعَ فِيهِ الْـمُتَأَخِّرُونَ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا ، فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ ، بَلْ وَلَا لَهُ : أَنْ يُوَافِقَ أَحَدًا عَلَى إِثْبَاتِ لَفْظِهِ أَوْ نَفْيِهِ ، حَتَّى يَعْرِفَ مُرَادَهُ ، فَإِنْ أَرَادَ حَقًّا ؛ قُبِلَ ، وَإِنْ أَرَادَ بَاطِلًا ؛ رُدَّ ، وَإِنْ اشْتَمَلَ كَلَامُهُ عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ ؛ لَمْ يُقْبَلْ مُطْلَقًا ، وَلَمْ يُرِدَّ جَمِيعَ مَعْنَاهُ ، بَلْ يُوقَفُ اللَّفْظُ وَيُفَسَّرُ الْـمَعْنَى »[1].

ومن الألفاظ المجملة : كلمة (الآخر) التي أصبح الجميع في هذا العصر يتحدث عنها بحرارة وحماس ، ويُفرض لها حقوقًا واحترامًا وتبجيلًا دون أن يكلف أحدٌ نفسه بتحديد مقصوده : مَن هو الآخر ؟ والذي يتحدث عن كل شيء يتعلق به بالتفصيل الممل ، باستثناء : مَن هو ؟ وما هي ماهيته ؟ وما هي ملامحه ؟

ولعلَّ هذا الغموض الذي يلف كلمة (الآخر) ، والذي دفع بعض الصحفيين إلى التساؤل في حيرة عن : من هو الآخر ؟ قائلًا : « يظل سؤال « الآخر » دائمًا مطروحًا ، وإن كان « مسكوتًا عنه » ، فلئن كانت ندواتنا العربية لا تنفك تترى متخذة من موضوع « الحوار مع الآخر » غرضًا محوريًا للنقاش والمناظرة إلَّا أن تحديد من هو « الآخر » المقصود في هذه الثنائية التي تبدو « بديهية » نادرًا ما يتم التساؤل عنه ، والاعتناء بضبطه وطرحه موضوعيًا »[2].

---

(١) « التدمرية » ، ص : (٦٥ ـ ٦٦) ، وانظر أيضًا : « درء تعارض العقل والنقل » : (١ / ٢٩٦ ـ ٢٩٩) ، و « مجموع الفتاوى » : (٥ / ٢٩٩) .

(٢) « صحيفة الشرق الأوسط » : الثلاثاء ٣٠ محرم ١٤٢٧ هـ فبراير ٢٠٠٦ العدد ٩٩٥٤ ، مثال السيد ولد أباه بعنوان (ولكن من هو الآخر) .



ومن هنا جاءت أهمية التنبيه أنَّ مصطلح (الآخر) من المصطلحات المُحْدَثَةِ التي تسربت مُؤخرًا إلى المجتمعات الإسلامية والعربية . وهو كأي مصطلح جديد أتى في الأصل من مصادر أجنبية له فيها خلفية معينة ترسَّبت عبر التاريخ ، ولا يزال معناه بعد استيراده غير محدد بشكل دقيق ، ولذا قد يطلقه البعض بدون قيود لضعف تصوره حول هذا المصطلح ، ويقيده آخر لفهمه الخاص به ، ويحتدم الخلاف والنقاش حول ذلك الإطلاق وذاك التقييد ، والسبب راجع للإجمال الذي في أصل اللفظ .

ومصطلح (الآخر) مصطلح وُلد في الغرب ، وكان وجوده هناك مسبوقًا بوجود مصطلح (الأنا) ؛ لأنَّ الغرب يرى أنَّه هو (الأنا) ، وهو مركز الكون والحضارات ، وبقية العالم تسمى (الآخر) ، فنشأ ذلك المصطلح كدلالة على الاستعلاء الغربي تجاه الآخرين ، وأصبح العالم يرى من قبل زاوية (الأنا) الغربية كالآخر !

و(الأنا) الغربية هي نقطة البداية وزاوية الرؤية التي تقيم من خلالها جميع الأشياء ، وهذه الرؤية تأتي انطلاقًا من تمركز الفكر الغربي على الذات ، والذي أنتج استعلاء على الآخرين ، وكانت المدونات الأدبية والفلسفية الغربية سجلًا موثقًا وحافلًا سجل فيه بكل دقة ملامح الاستعلاء الغربي على الآخر الذي يمثل في الشرقي . ومن هذه النظرة الفلسفية أصبحت العلاقات قائمة على عدم المساواة ، بل على غيرية تامة إلى درجة العداوة .

فأرسطو ـ مثلًا ـ يرى أن (الآخر) هو الغريب ، أمَّا أكثر الفلاسفة



المتأخرين ، فيرون أنَّ (الآخر) هو الشخص غير الطبيعي أو العدو ، أو الشيطان ، أو البرابرة ، أو المتوحش ، أو الخطر المميت ، أو الشر ، أو الإرهابي ، أو الأجنبي محلّ الريبة [1] !

ومن فلسفة الغرب لمصطلحي (الآنا ـ الآخر) انطلقت الحملات الاستعمارية تحت مسميات مختلفة ، فتارة : « حملات صليبية » ، وتارة : «حملات ضد البرابرة» ، والعامل المشترك هو : أنَّ الآخر ليست له قيمة مساوية للغربي ، فهو بربري أو متوحش بلا قانون أو إيمان ، ولذا فإنَّ الحق في أخذ ما في يديه ، وما تحت رجليه حق مشروع .

وقد بيَّن (فرنسوا شاتليه) أنَّ الغرب قد نظر للشعوب ـ التي قصد بلادها الأصلية لاستعمارها ـ بوصفهم وحوش وبرابرة ، فقد عرف الغرب ـ على حدِّ قوله ـ أنواعًا من المتوحشين وخاض معهم تجربة ، كمتوحشي [2] أمريكا وكندا [3].

وحينما عرفت الموسوعة الغربية (L.ENCYCLOPEDIE) (المتوحش) ـ في مقال خاص بالتعريف بالمتوحش ـ قالت : إنَّه من الشعوب البربرية التي تعيش بلا قانون ولا شرطة ولا دين ، ثم تعطي مثالًا على ذلك بأمريكا التي ما تزال مأهولة بأمم متوحشة بدون ملك ولا قانون ولا إيمان [4] !

---

(١) انظر : « نشرة الوموند دبلوماتيك » ، عدد : كانون الثاني / يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان : « التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي » ، للكاتب الغربي ريارد كابوتشينسكي .

(٢) يقصدون بهم السكان الأصليين الهنود !!

(٣) انظر : « أيديولوجيا الغزو » ، فرنسوا شاتليه ، ص : (١١) .

(٤) انظر : « أيديولوجيا الغزو » ، فرنسوا شاتليه ، ص : (١٠) .



يقول الكاتب الغربي (ريزارد كابوتشينسكي) : « لم يكن الإنسان الأبيض (الأوروبي) ، يغادر قارته إلَّا بهدف واحد : هو الاحتلال . كان يخرج من دياره ليصبح سيدًا على أراضٍ أخرى وللحصول على عبيد أو المتاجرة أو التبشير . غالبًا ما كانت تتحول رحلاته إلى حمامات من الدماء ، كما جرى لدى اجتياح كريستوف كولومبوس للأميركيتين ، تبعها حملة المستعمرين البيض الآتين من القارة العجوز ، ثم اجتياح إفريقيا وأستراليا ، إلخ »(١).

وبناء على نظرة الغرب لنفسه كـ « أنا » ، ونظره لغيره كـ « آخر » ؛ تشكَّلت سياسته تجاههم بوصفهم إمَّا برابرة يجوز احتلال أرضهم ، وإهدار جميع حقوقهم الإنسانية ؛ لأنهم - كما يقولون - لا يحق لهم ملك الأرض ؛ لأنَّهم بلا قانون ولا إيمان ، أو مجرد عبيد خلقهم الله لخدمة الرجل الأبيض.

ويقول فرنسوا شاتليه : « ما نعرفه من أفريقيا - ممالك الغرب التي تنظم بنفسها توريد العبيد - لا يسمح بتصنيف الأفارقة في عداد المتوحشين، ويُقال عن الأفريقي : إنَّه خُلق ليخدم »(٢).

ولعل هذه النظرة الدونية هي التي دفعت المجتمع الأبيض في أمريكا (الأنا) إلى النظر إلى إخوانهم السود (الآخر) كعبيد لا قيمة لهم ، أو لعلَّ

---

(١) « **نشرة الوموند دبلوماتيك** » ، عدد كانون الثاني / يناير ٢٠٠٦ ، **مقال بعنوان :** « **التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي** » ، للكاتب الغربي رزارد كابوتشينسكي .

(٢) **انظر :** « **أيديولوجيا الغزو** » - فرنسوا شاتليه ، ص : (١١) .



قيمتهم تقترب من قيمة الحيوانات التي تستخدم في الزراعة ونحوها !

يقول مالكم إكس [1] **مخاطبًا الأمريكان السود :** « مَن أنتم سوى عبيد سابقين ، أنتم لم تأتوا على « المايفلاور » [2] ، أنتم أتي بكم على سفينة عبيد مقيدين بالسلاسل مثل الخيول والبقر » [3].

ولم تكن العنصرية ـ والتي شكلت موقف الغرب تجاه (الآخر) ـ مقتصرة على التجار الجشعين ، أو رجال السياسة البرغماتيين ، بل كانت ـ أيضًا ـ تحظى بدعم فلسفي وتبرير عقلي من أعمدة الفكر الغربيين ، والتي وضعت الأسس الأخلاقية ـ أو اللاأخلاقية ـ لهذه القضية ، وقدمت الدعم المنطقي المبرر لموقف (الأنا) من (الآخر).

يقول منتسكو في كتابه الشهير (روح القوانين) : « إذا كان على أن أدافع عن حقنا في اتخاذ الزنوج ذوي البشرة السوداء عبيدًا ، فإنَّنِي أقول : إنَّ شعوب أوروبا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامها إلَّا أن تستعبد شعوب إفريقيا ، لكي تستخدمها في استصلاح أرجاء أمريكا

---

(١) أمريكي أصود ، أسلم وكان من جماعة (أمة الإسلام) بزعامة (محمد أليجا) ، وكانت تلك الجماعة تنتحل إسلامًا محرفًا ، وقد قابلوا عنصرية البيض بعنصرية سوداء ، لكن لما زار مالكم إكس مكة للحج تغيرت أفكاره الخاطئة والمغلوطة عن الإسلام ، ورأى في الحج مدى تسامح الإسلام ، وعد تفريقه بين أبيض وأسود ، وقد لقي احتفاء كبيرًا به من قبل الملك فيصل ـ رحمه الله ـ فرجع يبشر بأفكار المساواة بين البيض والسود إلى أن اغتيل ـ رحمه الله ـ على يد بعض العنصريين السود .

(٢) MAYFLOWER هي السفينة التي نقلت المهاجرين والحجاج الإنجليز الأوائل من «بلايموث» في إنجلترا إلى شمال فيرجينيا في أمريكا في عام ١٦٢٠م .

(٣) « النصوص المحرمة » ـ مالكم إكس ، ص : (٥٤) .



الشاسعة ، وما شعوب إفريقيا إلّا جماعات سوداء البشرة من أخمس القدم إلى قمة الرأس ، ذات أنوف فطساء إلى درجة يكاد من المستحيل أن ترثي لها ، وحاشا لله ذي الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحًا أو على الأخص روحًا طيبة في جسد حالك السواد » [(١)]

يقول (بندكت أندرسون) : (أمعنوا النظر بالسياسة الحالية إزاء البرابرة التي صاغها الليبرالي الكولومبي « بيدرو فيرمين دو فارجاس » في مطلع القرن التاسع عشر : « إن توسيع زراعتنا يتطلب أسبنه الهنود عندنا . إن كسلهم ، وغباوتهم ، ولا مبالاتهم تجاه الجهود الإنسانية الاعتيادية تدفع المرء إلى الاعتقاد أنهم ينحدرون من عرق منحط ») [(٢)] .

ويقول رينان ما يلي : « جنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأورورربي ، فإذا نزلت بهذا الجنس النبيل إلى مستوى الحظائر التي يعمل بها الصينيون والزنوج فإنَّه يثور ، إنَّ الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح من جنس آخر » [(٣)].

وبالإضافة إلى المبررات التجارية والسياسية والفلسفية العقلانية أضيف المبرر الديني لتكريس موقف الغرب (الأنا) المجحف من (الآخر) ، فالغرب ـ وخصوصا الأمريكي الأبيض ـ يرى أن الله كرمه وفضله على

---

(١) « العنصرية عند الغرب » ـ بحث للمؤلف غير مطبوع ، ص : (١٥) .

(٢) « بحث الجذور الثقافية للقومية » ـ بندكت أندرسون ، ضمن كتاب القومية مرض العصر أم خلاصة ؟ ص : (١٦) .

(٣) « العنصرية عند الغرب » ـ بحث للمؤلف غير مطبوع ، ص : (١٥) .



خلقه ، وأنَّ الله كما منح العبرانيين أرض كنعان والقدس ، وطرد منها أهلها الأصليين ، فقد منح أمريكا للأوروبيين المهاجرين إليها وطرد منها سكانها الأصليين ، بداية تحقيق مشروع العناية الإلهية الذي يعني تدفق النور [١] .

ويقول فرنسوا شاتليه : « إن تكوين التعابير التي تعني أمريكا ، أمريكي ، أمرك ، يشكل الدلائل على هذا التصميم الإلهي ، إنَّ أمريكا هي في نفس الوقت كنعان الجديدة ، القدس الجديدة ... وفيما يخص الأمريكيين، فهم تحت الحماية الإلهية ، إنَّ شعبًا مختارًا ، فقط ، هو الذي يستطيع الإقامة في هذا البلد الموهوب بكرم .. لقد عاملهم - أي الله - مثل العبريين » [٢] .

ومن هذه الرؤية الغربية الضيقة والمتعالية تجاه (الآخر) أصبحت الحضارة الغربية هي المحور والمرتكز للحضارات البشرية ، بل لا يوجد حضارة إنسانية غير الحضارة الأوروبية الغربية ، وما عدها فقطيع من الشعوب المتوحشة والبربرية أو العبيد .

ثم إنَّ (الأنا الغربية) ظهرت في أوروبا بقوة ، وانتشرت كالنار في الهشيم ، وتبناها ودافع عنها كثير من العلماء والفلاسفة ، وهي نظرة قائمة على (مركزية الحضارة الأوروبية) بحيث تستبعد كل ما سواها ، فلا حضارة إلا حضارة الغرب .

---

(١) « أيديولجيا الغزو » . فرنسوا شاتليه ، ص : (٥٣) .
(٢) « أيديولجيا الغزو » . فرنسوا شاتليه ، ص : (٥١ - ٥٢) .



وهناك العديد من المؤرخين الغربيين الذين ادعوا تأثير جنس بشري له خصائص معينة في صناعة التاريخ ، إذ لم يتردد البعض في الزعم بأن الجنس الأوروبي هو أفضل الأجناس على الإطلاق ، وأن باقي الأجناس الأخرى أقل قدرة في صناعة التاريخ .

يقول الفرنسي (جوبينو) في رسالة له حول عدم تساوي الأجناس : (إنَّ الآريين وحدهم هم بناء الحضارة والمحافظون عليها) [1] . وكان جوبينو لا يعترف بحضارة سوى الحضارة البيضاء [2] . **ويؤكد ذلك فيقول جوبينو :** « أن التفاوت العنصري كاف لتفسير مصائر الشعوب» [3] .

ذهب كل من (جوزيف آرثر) و(هوستن) إلى أن كل الحضارات الأساسية هي من عمل الآريين [4] .

وهذه (الأنا) هي التي دفعت (بلومباخ) إلى تأسيس نظريته الشهيرة التي زعم فيها أن هناك توافقا بين العبقرية وبين طبيعية العقل الأوربي .

وقال إفيريت ـ أستاذ في جامعة هارفارد ـ: «العرق الأنجلوساكسوني متفوق على نحو لم يسبق له مثيل ، ولا يدانيه أحد» [5] !

---

(١) « تفسير التاريخ » ـ نعمان السامرائي ، ص : (٢٨) .
(٢) **انظر : « أيديولوجيا الغزو »** ، فرنسوا شاتليه ، ص : (٨٢) .
(٣) « تفسير التاريخ » ، نعمان السامرائي ، ص : (٢٨) .
(٤) **انظر : « تفسير التاريخ »** ـ نعمان السامرائي ، ص : (٢٨) .
(٥) **« العنصرية عند الغرب »** ، ص : (١٣) .



وهذه (الأنا) الغربية ـ نفسها ـ هي التي دفعت علماء وفلاسفة الغرب إلى تغليف تفوقهم العنصري المزعوم بغلاف البحث العلمي ، فالنازيون الألمان يرون أن تفوقهم يقسر بناء على عرقهم ، وأنهم أفضل العروق وهم السادة ، أما الآخرون فهم العبيد !

وحينما سيطرت فكرة (الأنا) على عقل النازية ، جعل هتلر يقول بتفوق الألمان بالطبيعة على جميع أجناس البشر ، وتقوم فلسفته العنصرية أو (الأنا الألمانية) على فكرة تفوق الجنس الآري الجرماني على باقي الأجناس التي أجبتها الطبيعة ، حيث يرى أن الشعب الآري فوق الجميع لذلك يجب الحفاظ على نقاوتها . ولذا فقد منع هتلر زواج الألمان من الأجناس الأخرى ، حتى لا يختلط دمهم النقي بدماء غيرهم الفاسدة [1] .

وذهب النازيون إلى أن العروق ليست مختلفة فقط بل متفاوته ، أفضلها وأرقاها وأنقاها العرق الآري ، الفرع « النورديكي » ، وأدناها وأحطها الأفارقة السود [2] .

ويبين ريزارد كابوتشينسكي إن هذه النظرية العنصرية للآخر هي التي دفعت النظام الأبيض الكريه ـ على حد تعبيره ـ في جنوب إفريقيا إلى تأسيس علاقاته بالآخرين على مبدأ التمييز العنصري (APARTHEID) ، ثم يفسر هذا التصرف ـ القائم عدم قدرة على التفاهم مع الآخرين والتطبع بطباعهم ، والرغبة في بناء الأسوار الضخمة وحفر الخنادق

---

(١) انظر : « تفسير التاريخ » ، ص : (٢٨) .

(٢) انظر : « تفسير التاريخ » ، ص : (٢٨) .



العميقة ، للانعزال عن الآخرين - بأنه فشل للكائن البشري في علاقاته [1] .

ثم تتابعت - بعد ذلك - النظريات الغربية لتكريس (الأنا) ، والبحث عن مسوغات علمية لاستبعاد (الآخر) ، وتبرير شن حروب إبادة وإقصاء في حقه ؛ لأنَّ (الآخر) ليس إلَّا عبدًا لا قيمة له ، ولعل هذه الأيديولوجية الغربية تفسر الحوداث العنيفة والدموية في التاريخ الغربي ، فإبادة الهنود الحمر ، والحروب الصليبية ، ومحاكم التفتيش ، والحروب الأخرى تطبيق عملي لمفهوم الغرب للآخر ، ذلك الآخر الذي لا ذنب له إلَّا أنَّه صنف غربيًا بالأخر ، مما يني أنهم مجرد عبد وبربري في نظر الغرب . يقول فرنسوا شاتليه : « كان على النظام - أي الغربي - إنكار إنسانية العبد ، إنَّه لا يعرف ، بوصفه حيوانًا أو آلة أو كافرًا ، كيف يشارك في دائرة السوق التي هو مع ذلك دولابها الحاسم ، يفترض اقتصاد النخاسة عدم تماثل صارم: إنسان = أبيض = حر ، دون الإنسان = غير أبيض = عبد » [2] .

لقد تمَّ رسم ملامح (الآخر) بوضوح في الذهنية الغربية بناء على تصورات الرجل الأبيض ، فهو الذي حدد المفاهيم ، ومن ثَمَّ رسم العلاقات بدقة مع الآخرين ، فالزاوية الوحيدة التي ينظر للآخرين من خلالها هي زاوية الغربي ، وعين الأبيض ، وتقييم الأوروبي ، وهذا لا شك - كما بينا سابقا - مبني على مفاهيم مسبوقة مبنية على المفهوم الغربي (للأنا)

---

(١) انظر : « نشرة الوموند دبلوماتيك » ، عدد : كانون الثاني / يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان « التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي » ، للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .

(٢) « أيديولوجيا الغزو » - فرنسوا شاتليه ، ص : (٧١) .



القائمة على التناقض بينها وبين (الآخر) .

يقول الكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي : « لقد تمَّ تحديد مفهوم «الآخر» بحسب وجهة نظر الإنسان الأبيض ، الإنسان الأوروبي »[1] .

ويقول فرنسو شاتليه : « ثَمَّةَ معيار أبيض ، وفيما بعدُ أرى يكون منقوشًا على سطح الكرة الأرضية ، يكون هذا النقش تناقضيًّا ، تناقض بين الأبيض وغير الأبيض »[2]

ويقول فرنسوا شاتليه - أيضا - : « يقيم توزيع المزايا تقسيمًا كونيًّا للعمل : للأبيض النظام والحرية والمثابرة ، أمَّا الأصفر ؛ فهو جسور وضعيف ، ولكنَّه عملي ، في حين يكون الزنجي شره ، وموسيقى ، وكثير النسل ، وغير مستقر »[3] .

لقد لخَّص بعض الغربيين - قديمًا وحديثًا - رؤيتهم وموقفهم من الآخر ، حيث اعتقدوا أنَّ الآخر بكل اختصار هو (الجحيم) الذي لا يرغب أحد في الذهاب ، أو التعرف إليه ، أو إقامة علاقات ودية ، أو إنسانية معه . وهذه التصورات المغلوطة والمتجنية تجاه الآخرين هي ما دفعت الكاتب (إدوارد ألبي) في مسرحيته (قصة حديقة الحيوان) إلى تكرار عبارة : (إنَّ الجحيم هو الآخر) على لسان أحد شخصياتها .

---

(١) انظر : « نشرة الوموند دبلوماتيك » ، عدد : كانون الثاني / يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان « التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي » ، للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .

(٢) « أيديولوجيا الغزو » - فرنسوا شاتليه ، ص : (٧٢) .

(٣) « أيديولوجيا الغزو » ، فرنسوا شاتليه ، ص : (٧٨) .



وكذلك (جون بول سارتر) في مسرحيته (الجلسة السرية) ، حيث قال بكل وضوح : (إنَّ الجحيم هو الغير) [1].

وقد أرجع ريزارد كابوتشينسكي التصورات المغلوطة عند الرجل الغربي عن (الآخر) إلى جهل الرجل الأوروبي الأبيض بكل ما له علاقة بالشعوب الأخرى وثقافتها ، ومنها كونوا فكرة خاطئة عنه ، مليئة بالغطرسة والاحتقار [2].

إنَّ خلاصة مصطلح (الآخر) - كما قيل سابقا - أنَّه مصطلح غربي يدل على السلبية والعدوانية ، في مقابل (الأنا) الغربية الدالة على العلو والزهو والتغطرس . ومع كل تلك المعاني السلبية والعدوانية الكثيرة التي اقترنت في الغرب بتاريخ مصطلح (الآخر) إلَّا أنَّك تجد كثيرًا من الكتاب العرب - للأسف - ينعون على التراث العربي الإسلامي عدم وجود مصطلح (الآخر) في أدبياته !

ولا أدري أين يكمن الخلل عند هؤلاء ؟ هل يكمن في سطحيتهم ، أم في ببغائيتهم التي تطالب بمطابقة التراث الإسلامي للتراث الغربي في كل شيء حتى في القبائح !

ولذا فلا بُدَّ للمتحدث أو الباحث والكاتب أن يحرص على التعاطي مع المصطلحات الشرعية قدر الطاقة ، أو المصطلحات الواضحة في

---

(١) « العنصرية عند الغرب » ، ص : (١٨) .

(٢) انظر : « نشرة الوموند دبلوماتيك » ، عدد : كانون الثاني / يناير ٢٠٠٦م ، مقال بعنوان : « التلاقي بالغريب ، هذا الحدث الأساسي » للكاتب الغربي ريزارد كابوتشينسكي .



معانيها وتاريخها ، وإذا ما اضطر لاستخدام مصطلحات مرتبكة ، أو مشوشة ، أو مجملة ـ على حد تعبير ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله ـ ، فلا بُدَّ من تفصيل وبيان المعني المراد ، حتى لا يتبادر للأذهان المعاني الباطلة أو الخاطئة .

الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع ، فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم ، والإثبات والنفي على معناها ، إلَّا أن يتبين أنَّه يُوافق الشرع .

فالمطالبة بالحقوق الواجبة شرعًا لشيء ما ، لا يكون إلَّا بعد استقرار معنى هذا الشيء في الأذهان ، حتى يعرف المخاطَب مراد المتحدث ، فإن رتب على مراده حق ؛ قُبِلَ ، وإن أراد باطلًا ؛ رُدَّ ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل ؛ لم يُقبل مطلقًا ، ولم يُرَدَّ جميع معناه ، بل يُتوقف في اللفظ ، ويُفسر المعنى ، وهذا باب مهم في الخطابات الثقافية المعاصرة ، حيث تُقام معارك على ألفاظ لو استفصل معناها ؛ لزال كثير من اللغط حولها ، وكما ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ فإنَّ أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل ، فيُطلقها مَن يريد حقها ، فينكرها مَن يريد باطلها ، فيردُّ عليه مَن يريد حقها .

ولذا لم يرد في الشرع ولا في التراث الإسلامي كلمة (الآخر) ، بل جاءت مجموعة المصطلحات المخصوصة والمحددة في معانيها وما يترتب عليها من حقوق وواجبات . وعموم نظرة التشريع الإسلامي للإنسان تقوم على أنَّ الله كرَّم جميع البشر الذين ينتسبون جميعًا إلى أب واحد وأم



واحدة ، وجعل الله مبدأ التكريم يقوم على قدر متساوٍ ، لا يفضل الأبيض على الأسود ، ولا العربي على الأوروربي ، وإنَّما الفضل لمن يعمل بجد ، وإخلاص في تحقيق طاعة الله .

ولأجل هذا الاختلاف ـ الذي ليس منبعه من عنصرية قومية أو قبلية ذاتيه ، وإنَّما منبعه من أمور كسبية ـ نشأت مصطلحات كثيرة تجسد بكل جلاء علاقتنا ، مثل مصطلح : (الكفار) ، و (المجوس) ، و (المشركين) ، و (أهل الذمة) ، و (أهل الكتاب) ، و (أهل الأهواء والبدع من المسلمين).

وكلها مصطلحات تُشير إلى قوم مخالفين في الفكر والعقيدة إمَّا خارج الدائرة الإسلامية ، وإمَّا داخلها .

فالذين يقعون خارج الدائرة الإسلامية قد رتب وفصل لهم التشريع الإسلامي جميع الحقوق والواجبات التي تلزم غيرهم كحق لهم ، أو تطلب منهم لغيرهم كواجب عليهم ، وقد وردت نصوص صريحة وصحيحة تحكم العلاقة الإنسانية بين المسلم وغير المسلم ، وتعظم جانب رعاية حقوق أهل الذمة وأهل الكتاب ، وكذلك بينت كيفية التعامل مع غيرهم من غير المسلمين ، ولا تجد في غير الإسلام مثل تلك الحقوق المرعية لغير المسلمين .

أما داخل الدائرة الإسلامية فقد بسطت في فقه الخلاف والاختلاف الإسلامي ، لتباين درجة الاختلاف بعدًا أو قربًا ، مع أن الأصل هو



الرحمة بالمخالف مع بيان الحق وصون جوهر العقيدة .

ولكون مصطلح (الآخر) من الألفاظ المجملة ، والتي استخدمت بشكل واسع في هذا العصر ، وعلى وجه الإطلاق ، فلا يعرف بالتحديد مَن هو (الآخر) ؟

هل هو الذي يختلف عنَّا بلغته وقوميته فقط ؟

أم هو المسلم ؟

أم هو أهل الذمة وأهل الكتاب ؟

أم هو الوثني ؟

أم الملحد ؟

أم المسلم المخالف المبتدع ؟

أم المسلم المجتهد في الفروع ؟

أم المقصود جميع هؤلاء دون تمييز ؟

فلا بُدَّ من الاستفصال والتبيين حتى يعرف المقصود بالآخر ؛ لأنَّ بعض الكتاب المعاصرين أخذ على عاتقه الكلام عن حقوق (الآخر) دون أن يحدد ماهيته وحدوده ، وأصبح الباب مشرعًا لفرض جميع الحقوق التي فرضها الإسلام للمسلمين أو لأهل الذمة لتعطي للملحدين والزنادقة ونحوهم ، فحصل الخلاف بسبب ما في خطاب هؤلاء المثقفين من الإجمال والغموض ، والذي قد يكون مقصودا لذاته !

أما في كتابي هذا (ابن تيمية والآخر !) ؛ فإنني استخدمت كلمة

(الآخر !) هكذا ، لأسباب :

أولًا : أنَّ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قد تعامل مع أصناف مختلفة من أهل الخلاف داخل وخارج الدائرة الإسلامية ، ومثل في كثير من جوانب تعامله صورة حية تجسد تعاليم الإسلام في التعامل مع المخالفين ، فإنِّي أُقدمه في هذا الكتاب كعالم مسلم تعامل نظريًّا وعمليًّا مع هؤلاء المخالفين داخل وخارج دائرة الإسلام والذين يسمون بالآخر.

ثانيًا : أنَّني وجدت أكثر المستخذمين لكلمة (الآخر) يستخدمونها مطلقة وعامة دون تفصيل ، ويقصدون بها كل المخالفين داخل وخارج دائرة الإسلام ، ومهما كانت درجة الاختلاف . والخطأ الذي وقعوا فيه يكمن في ترتيب الحقوق على لفظ مجمل ، فالخلل المنهجي عند هؤلاء لا يتمثل في إطلاق مفهوم (الآخر) بقدر ما يتمثل في ترتيب الحقوق الواحدة على هذا الإطلاق ، وهذا أمر يخالف الشرع والعقل والواقع .

فلوا أنهم أطلقوا مفهوم كلمة (الآخر) على كل مخالف ، ثم فصلوا ترتب الحقوق وَفق ما رتبه الشرع ، لأصبح الخلاف لفظياً ، وأصبح الكلام يدور حول المصلحة في استخدام هذا اللفظ المجمل الذي لم يرد به الشرع ، ويزول الإشكال حوله بالبيان والتفصيل .

ثالثًا : أنَّ هذه الكلمة أعني (الآخر) بهذا الإطلاق أصبحت واسعة الانتشار ، كثيرة الاستخدام في الفترة الأخيرة ، وكثرت النداءات الصاخبة والمحتجة مطالبة بحقوقها ، في مقابل اتهام أهل السنة والجماعة وخصوصًا



ابن تيمية بانتقاص ومعاداة الآخر . فأردت أن أعرض موقف ابن تيمية - من خلال كلامه وفعله - من صنوف المخالفين المتعددة ، والتي تندرج تحت سقف المفهوم المطلق (للآخر) ، كما يستخدمه كثير من المثقفين اليوم.

وقد ركزت على موقف ابن تيمية من المخالف داخل دائرة الإسلام ، لِمَا فيه من اللبس والظلم الكبير الذي وقع على هذا العلم الشامخ ، مع إشارات يسيرة إلى المخالف خارج الدائرة الإسلامية ، مع العزم - بإذن الله - على بيان ذلك بالتفصيل في الطبعات القادمة .

فـ (الآخر) هنا أعني به : كما يتصوره مَن يُطلق هذه الكلمة أو بعبارة أدق : هم الذين يرون ابن تيمية هو الآخر المخالف لهم عقديًّا وفكريًّا ، وبسبب هذا الخلاف قام بعضهم بتبديعه أو تكفيره أو الاعتداء عليه .

رابعًا : بسبب انتشار هذا المصطلح ، وكثرة استخدامه ، والهالة التي لفَّته ، ترتب على ذلك إلباسه نوع من الإيجابية ، بل والقدسية في أذهان القُرَّاء والمستمعين ، فأردت أن أبيّن أولًا أصله ومنشأه ودلالاته ، حتى ينفكَّ الارتباط بينه وبين ما عَلَقَ به من إيجابية ومدح مع الإطلاق ، وثانيًا أقدم أقوال وأفعال ابن تيمية تجاه من يخالفه ، ليقارن القارئ بين الموقفين ، موقف ابن تيمية من (الآخر) وموقف الغرب وغيرهم منه .

وعلى أي حال ، فسيجد - القارئ الكريم - في هذا الكتاب كيف تعامل ابن تيمية مع هؤلاء المخالفين ، وكيف تعامل مع من يخالفه في



بعض أمور العقيدة أو الأصول ، وهل وصفهم بالآخر على مقاييس ومفاهيم الغرب ؟ أم اعتبرهم مسلمين قد انحرفوا في هذه المسائل واجتهدوا ، وهم متفاوتون في اجتهاداتهم بين قريب وبعيد ، والله يغفر لمن طلب الحق منهم وأخطأه .

الفصل الثاني

في ظلال سيرة ابن تيمية وشخصيته

«فَلَا أُحِبُّ أَنْ يُنْتَصَرَ مِنْ أَحَدٍ بِسَبَبِ كَذِبِهِ عَلَيَّ أَوْ ظُلْمِهِ وَعُدْوَانِهِ، فَإِنِّي قَدْ أَحْلَلْتُ كُلَّ مُسْلِمٍ، وَأَنَا أُحِبُّ الْخَيْرَ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ، وَأُرِيدُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ الْخَيْرِ مَا أُحِبُّهُ لِنَفْسِي، وَالَّذِينَ كَذَبُوا وَظَلَمُوا فَهُمْ فِي حِلٍّ مِنْ جِهَتِي..».

[ابن تيمية « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٥٥ ـ ٥٦)] .

مَن يَطَّلِعُ على سيرة ابن تيمية [١] يعلم أنَّ هذا الرجل نسيج وحده ، وأنَّه من نعومة أظفاره وهو يحمل نفسًا عالية ، وهمة جبارة ، وعقلية فذة ، انصهرت جميعها في بوتقة واحدة ، ووجهت نحو خدمة هم أمته الإسلامية .

فمنذ وقعت عينه وهو صغير على آثار انهيار الأمة وتشتتها ، وعايش البلاء العظيم الذي حلَّ بها ، وسمع من معاصريه أخبار زحف جيوش التتار على الخلافة ، وتدمير حواضرها ، وسحق عاصمتها ، وتناوش جيوش الصليب لأطرافها ، فمنذ تلك اللحظة وهو يحمل في قلبه الصغير هما يؤرقه ، وحزنًا يلازمه ، وظل يُفكر في سبيل خروج أمته من هذا النفق المظلم ، وهذه الحفرة السحيقة التي وقعت فيها بسبب العقائد الخرافية ، والأوهام الباطلة ، والخلافات الطائفية ، والمشاحنات المذهبية ، التي فرقت الأمة وشتتها ، وجعلتها نهبا للأعداء في كل مكان .

---

(١) أقول : سيرة الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ مشهورة ومعروفة ، وقد أُلِّفَتْ فيها الكتب والمجلدات ، وبُسِطَتْ لها الصفحات ، وليس هذا الفصل مُخَصَّصًا لعرضها بالبيان والتفصيل ، وإنَّما المقصود عرض لمحات ونفحات من سيرته وشخصيته ، وشيء من منهجه ، ليقف القارئ على جوانب عظمته وإنصافه وموضوعيته ـ رحمه الله ـ ، ومَن أراد الزيادة ؛ فليراجع الكتب المختصة التي بسطت ترجمته ، ومن الأمثلة : كتاب « العقود الدرية » ، و«الأعلام العلية» ، وما صدر مُؤخرًا وهو من أجمع الكتب لسيرة ابن تيمية ، وهو كتاب «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون » ـ محمد عزيز شمس وعلى العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة .

ورحم الله مُؤرخ الإسلام الإمام الذهبي حينما قال وهو يتحدث عن ابن تيمية : « هو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته ، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنِّي ما رأيت بعيني مثله » .

[« الشهادة الزكية » ، ص : (٤٣) ، وانظر : « ذيل الطبقات » (٤ / ٣٩٧)] .



وكان منذ صغره وهو يتقد ذكاء وفطنة وألمعية ، فجعل همته في الإمساك بحبل الله المتين ، كتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فجعل شغله الشاغل العلم الشرعي ؛ إذ هو المنزل الأول والأساس الثابت لانطلاق السائرين في منازل صيانة الأمة وإصلاحها ، وهو المدرج الأول للسالكين في تجديد أمر هذه الأمة .

قال الإمام الحافظ البزار : « ولم يزل منذ أبان صغره مستفرق الأوقات في الجهد والاجتهاد ، وختم القرآن صغيرًا ، ثم اشتغل بحفظ الحديث و الفقه والعربية ، حتى برع في ذلك ، مع ملازمة مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار ، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية .

أما دواوين الإسلام الكبار كمسند أحمد ، وصحيح البخاري ، ومسلم ، وجامع الترمذي ، وسنن أبي داود السجستاني ، والنسائي ، وابن ماجة ، والدارقطني ، فإنَّه - رحمه الله ورضي عنهم وعنه - سمع كل واحد منها عدة مرات ، وأول كتاب حفظه في الحديث الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي ، وقلَّ كتابٌ في فنون العلم إلا وقف عليه »[1].

فكان - رحمه الله - بعد ذلك آية من آيات ا لله في الحفظ والعلم ، حتى قال العلماء - كالذهبي وغيره - : الحديث الذي لا يعرفه ابن تيمية ، فليس بحديث . دلالة على سعة حفظه ، وعظيم علمه ، وصار علامة بارزة بين

---

(١) « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » - الحافظ عمر على البزار ، تحقيق : العلامة / زهير الشاويش ، ص : (١٩) الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ ، المكتب الإسلامي بيروت .



العلماء على إتقان كتاب الله وعلومه ، وحفظ السنة وعلومها ، فصار نادرة زمانه ، وجوهرة عصره في علوم الشريعة .

قال الإمام الحافظ المزي : « ما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا أتبع لهما منه » [1].

ولم يكن ـ رحمه الله ـ عالـمًا سلبيًّا ، كسولًا أو خائفًا أو منزويًا في زوايا دور العبادة ، بل كان باذلًا ماله ووقته وجهده في سبيل الله وفي سبيل نصرة دين الله ، وفي سبيل خدمة عباد الله ، لا ينثني ولا يتوانى ، فلا يقعده كلام الخصوم وطعنهم فيه وتهويشهم عليه ، ولا لمز وسخرية وخذلان الأصحاب ، كما لا يزيد من نشاطه مدح المقربين أو أصحاب الجاه ، ولا يلجمه عن قول الحق رغبة أو رهبة من سلطان أو غيره .

قال عماد الدين الواسطي : « إنَّ الله ـ تعالى ـ قد رحم هذه الأمة بإقامة رجل قوي الهمة ، ضعيف التركيب ، قد فرق نفسه وهمه في مصالح العالم وإصلاح فسادهم ، والقيام بمهناتهم ، وحائجهم ، ضمن ما هو قائم بصد البدع والضلالات وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم ويردهم إلى الدين الأول العتيق جهد إمكانه » [2].

وكان مع مكانته العظيمة ، وقدره الشريف ، وخضوع السلاطين له ، وكثرة أتباعه ، وقوة أنصاره ، وتعاطف العامة معه ونصرتهم له ، في غاية

---

(١) « الرد الوافر » ، تحقيق : العلامة / زهير الشاويش ، ص : (٢٣٠) الطبعة الثالثة ١٤١١هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت . و « العقود الدرية » ، ص : (٧) .

(٢) « العقود الدرية » ، ص : (٣١٩) .



التواضع وغاية البساطة مع عوام الناس ، لا يرى لنفسه فضلًا على أحد ، بل كان يجلس مع سائر الناس كأنَّه واحد منهم ، حتى لـمَّا كان في سجنه ، ما كان يتأفف من مجالسة أصحاب الذنوب والجرائم لنصحهم وإرشادهم وتعليمهم أمور دينهم ، بل كان يرى ذلك واجبًا عليه ، زكاة لعلمه ، وتزكية نفسه .

قال تلميذه الحافظ البزار : « وأما تواضعه ؛ فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك ، كان يتواضع للكبير والصغير ، والجليل والحقير ، والغني الصالح والفقير ، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء ، حتى إنَّه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرًا لقلبه ، وتقربًا بذلك إلى ربه »[1].

وقال الحافظ البزار - أيضًا - حاكيًا تجربته الشخصية مع شيخه ابن تيميه: « وأظهر لي من حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع ، بحيث إنَّه كان إذا خرجنا من منزله بقصد القراءة يحمل هو بنفسه النسخة ، ولا يدع أحدًا منا يحملها عنه ، وكنت أعتذر إليه من ذلك خوفًا من سوء الأدب ، فيقول : لو حملته على رأسي لكان ينبغي ، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ »[2].

وكان - رحمه الله - رحيمًا بالمسلمين ، شفيقًا عطوفًا عليهم ، يتلمس

---

(١) « الأعلام العلية » ، ص : (٤٨) .
(٢) « الأعلام العلية » ، ص : (٤٩) .



حاجاتهم ، ويقضي أمورهم ، ولا يهنأ له بال وهو يعلم أن أحدهم في ضائقة أو وقع له مكروه ، بل طالت رحمته أهل ذمة المسلمين ، الذين لهم في الإسلام ذمة الله وذمة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال ابن تيمية في رسالة بعثها إلى (سرجون) ملك قبرص يحثه فيها إطلاق سراح المأسورين من المسلمين : « قد عرف النصارى كلهم لـمَّا خاطبت التتار في إطلاق الأسرى ، وأطلقهم غازان وقطلوشاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين ، قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس فهؤلاء يطلقون . فقلت : بل جميع مَن معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، فإنَّا نفتكهم ، ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة . وأطلقنا من شاء الله ، فهذا علمنا وإحساننا والجزاء على الله »[1].

أما زهده وعبادته وورعه ، فالكلمات والحروف قاصرة عن بيان ذلك ، لاشتهار حاله ، وظهوره للخاصة والعامة ، فقد كان رباني العبادة ، قريب القلب من ربه ، سريع الدمعة ـ رحمه الله ـ ، له جلد عجيب على العبادة ، قل أن يطيقه غيره .

قال الحافظ البزار : « أما تعبده ـ رضي الله عنه ـ فإنَّه قلَّ أن سمع بمثله؛ لأنَّه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه ، حتى إنَّه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ـ تعالى ـ ما يراد له لا من أهل ولا من مال .

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٦١٧) .



وكان في ليله متفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه - عز وجل -، ضارعًا مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم، مكررًا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية، وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسننها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام »[1].

ومع علمه وجهاده وورعه وزهده وتقواه، فإنه - رحمه الله - كان مجتهدًا باذلًا نفسه لخدمة أمته، مُعَرِّضًا نفسه للأخطار في سبيل ربه، ثم في سبيل نهضة أمته التي طال رقادها بسبب البدع والمحدثات التي خيَّمت على عقول كثير من الأمة.

وما كان - رحمه الله - مُحِبًّا للشهرة، ولا راغبًا في التميز بالشواذ والغرائب، بل كان همه وهدفه الحق أينما كان، ومهما كان ثمنه.

وبسبب ذلك، عارضه أهل التقليد، وكفَّره أهل الجهل، وبغي عليه أهل الحيف، وهو صابر لا يتزعزع كالجبل الأشم؛ لأنَّه ما قال شيئًا، وما اعتقد أمرًا بالتشهي أو بالهوى، بل كان يعتقد ما يراه يقينًا وحقًّا، دلَّه وهداه إليه الدليل النقلي الصحيح، والعقلي الصريح.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: « المسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي »[2].

---

(١) « الأعلام العلية »، ص: (٣٥).

(٢) « الرد الوافر »، ص: (٢٤٧)، و« الشهادة الزكية »، ص: (٧٣).

قال الحافظ البزار : « إنَّه ـ رضي الله عنه ـ ليس له مصنف ولا نص في مسألة ولا فتوى إلَّا وقد اختار فيه ما رجَّحه الدليل النقلي والعقلي على غيره ، وتحرى قول الحق المحض ، فبرهن عليه بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة ، بحيث إذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يثلج قلبه بها ، ويجزم بأنَّها الحق المبين .

وتراه في جميع مؤلفاته إذا صحَّ الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه ، ويُقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد ، وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفًا مع الكتاب والسنة ، لا يميله عنهما قول أحد كائنًا مَن كان ، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحدًا ، ولا يخاف في ذلك أميرًا، ولا سلطانًا ، ولا سوطًا ، ولا سيفًا ولا يرجع عنهما لقول أحد وهو متمسك بالعروة الوثقى »[١].

وابن تيمية ـ رحمه الله ـ ما كان تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يأخذ بالتقية خيفة من الناس على مصالحه ومدخراته الشخصية ، فإنَّه كان يقول بالحق الذي آمن به ، ولا يتزعزع ولا يداهن أحدًا ، ولو اجتمع الناس كلهم لحربه ، ولو سلطوا السلاطين عليه ، وكتبوا في ذمه التقارير الكيدية ، وكروا به ، فإنَّه ثابت الجنان ، ناطق بالحق .

يقول ابن تيميه ـ رحمه الله ـ : «ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه»[٢].

---

(١) « الأعلام العلية » ، ص : (٧١) .
(٢) « العقود الدرية » ، ص : (١٥٢) .



وقال ابن فضل الله العمرى : « وكان ابن تيميه لا تأخذه في الحق لومة لائم ، وليس عنده مداهنة ، وكان مادحه وذامه في الحق عنده سواء »[1].

وممًّا زاد غيظ خصومه عليه ، ما كانوا يقترفونه من مداهنة السلاطين على حساب الحق ، فيجاملونهم على حساب دينهم ، ويعاونوهم على ظلم عامة الناس تقربًا لهم وتوددًا إليهم ، وفي المقابل كان شيخ الإسلام صادحًا بالحق ، ناطقًا بالصدق ، محاميًا عن حقوق فقراء الخلق ، مدافعًا عن أرزاقهم ، دافعًا الظلم عنهم ، مفتشًا عن الفقير المحتاج ، باذلًا لقمته إلى فم المساكين !

قال الحافظ البزار : « ولا زاحم في طلب الرئاسات ، ولا رئي ساعيًا في تحصيل المباحات ، مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره ، خاضعين لقوله وفعله ، وأدين أن يتقربوا إلى قلبه مهما أمكنهم ، مظهرين لإجلاله ، أو أن يؤهل كلا منهم في بذل ماله »[2].

وفي المقابل كان حال مبغضيه كما يقول الحافظ البزار : « سبب عداوتهم له أن مقصودهم الأكبر طلب الجاه والرئاسة ، وإقبال الخلق ، ورأوه قد رقاه الله إلى ذروة السنام من ذلك ما أوقع له في قلوب الخاصة والعامة من المواهب التي منحه بها ، وهم عنها بمعزل ، فنصبوا عداوته ، وامتلأت قلوبهم بمحاسدته »[3].

---

(١) « الشهادة الزكية » ، ص : (٣٣) .
(٢) « الأعلام العلية » ، ص : (٤٥) .
(٣) « الأعلام العلية » ، ص : (٦٩) .

ولأنَّهم يعلمون أنَّ العامة والخاصة تحبه ، فقد عمدوا إلى الكذب عليه ، واختلاق الأباطيل على لسانه ، ولبس الحق بالباطل ، واستعداء أهل الخرافات عليه ، ومن ناصرهم من الأمراء . مع أنَّهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنَّه عالم مجتهد ، آخذ بالدليل العقلي والشرعي ، لا يقول بهوى ، ولا ينطلق من تشهي ، ولا يكتم حقًا اعتقده .

قال ابن تيمية : « وما كتبت شيئا من هذا ليكتم عن أحد ولو كان مبغضا »[1] . **وقال أيضا** : « إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل على ، فأستغفر الله - تعالى - ألف مرة ، أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل »[2] .

ومع كل ذلك لم يرتدع أهل البغي عن بغيهم ظلمهم وافترائهم على ابن تيمية ، بل حشدوا رعاع الناس ، من أهل الخرافات والأهواء ضده ، وخاصة من يتاجرون بمراقد ومقابر الأموات ، ويجنون من العامة والبسطاء الأموال الكثيرة ، فاستمالوا الأمراء الذين يعظمون الخرافة ، ويعمرون المقابر ويخربون العمران ، وكذبوا على ابن تيمية عند بقية الناس ، وألبوا السلطان عليه ، حسدًا من عند أنفسهم .

حسدوا الفتي إذ لم ينالوا سعيه   فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسدًا وبغيا : إنه لدميم

---

(١) « العقود الدرية » ، ص : (٣٨٣) .

(٢) « العقود الدرية » ، ص : (٥) .



ثم تسببوا في سجنه مرات وكرات ، وهم لا يرضون إلَّا بقتله بعد أن كفروه ، وأهدر بعضهم دمه ، فسجن مرات ومرات ، حتى جاء سجنه الأخير الذي مات فيه ، فأرادوا أن يمعنوا في إيذائه وهو الأسير فقاموا بمنعه من الكتابة ، ليوقفوا كلمة الحق حيث صادروا منه أقلامه وكتبه ، ووضعوه في زنزانة مظلمة ، أضرت ببصره ، وكانت مصادرة الأوراق والأقلام أشد شيء علي نفس هذا العالم الكبير ، فحرموه من كل شيء حتى من كتابة الكلمة ، والحرف الواحد ! !

هكذا هم أعداء كلمة الحق الحرة دائمًا في كل زمان ومكان !

قال ابن عبد الهادي : « فلما كان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم يبقَ عنده كتاب ولا ورقة ولا دواة ولا قلم ، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم ، وقد رأيت أوراقًا عدة بعثها إلى أصحابه وبعضها مكتوب بفحم » [1].

ومع ما كان فيه ـ رحمه الله ـ من ضيق وضنك ، فقد كان لا يفتر عن التحدث بنعم الله عليه . وكان يكتب لأصحابه وتلاميذه بحمد الله وشكره والثناء عليه . ومن ذلك آخر رسالة كتبها ابن تيمية قبل وفاته بنحو شهر ونصف ، كتبها بالفحم لـمَّا أخرجوا عنه الأقلام والأوراق ، فاضطر لغسل رسائل تلاميذه التي كانت ترسل له من قبلهم ، ثم الكتابة

---

(١) « العقود الدرية » ، ص : (٣٧٩ـ٣٨٠) .

عليه مرة أخرى . يقول في رسالته تلك :

« ونحن ـ ولله الحمد والشكر ـ في نعم عظيمة تتزايد كل يوم ، ويجدد الله ـ تعالى ـ من نعمه نعمًا أخرى ، وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصًا على خروج شيء منها لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج (الإخنائية) ـ أي كتابة الذي رد فيه على الإخنائي الصوفي ـ ، فاستعملهم الله ـ تعالى ـ في إخراج الجميع وإلزام المنازعين بالوقوف عليه ، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق .

فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس ، فإذا ظهرت : فمن كان قصده الحق هداه الله ، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله »[1].

ثم قال : « والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت ، وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا ، ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، كل ما يقضيه الله ـ تعالى ـ فيه الخير والرحمة والحكمة إنَّ ربي لطيف لِـمَا يشاء إنَّه هو القوي العزيز العليم الحكيم ، ولا يدخل على أحد ضرر إلَّا من ذنوبه ما أصابك من حسنة ؛ فمن الله ، وما أصابك من سيئة ؛ فمن نفسك ، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائمًا على كلِّ حال ، ويستغفر من ذنوبه ، فالشكر يُوجب المزيد من النعم ، والاستغفار يدفع النقم ، ولا يقضي الله للمؤمن قضاء إلَّا كان خيرًا له ، إن أصابته سراء ؛ شكر ، وإن أصابته ضراء ؛ صبر ، فكان خيرا له »[2].

---

(١) « العقود الدرية » ، ص : (٣٨٢ ـ ٣٨٣) .
(٢) « العقود الدرية » ، ص : (٣٨٢ ـ ٣٨٣) .



قال ابن عبد الهادي معلقًا على هذه الرسالة : « وهذه الورقة كتبها الشيخ ، وأرسلها بعد خروج الكتب من عنده بأكثر من ثلاثة أشهر في شهر شوال قبل وفاته بنحو شهر ونصف ، ولـمّا أخرج ما عنده من الكتب والأوراق .. أقبل الشيخ بعد إخراجها على العبادة والتلاوة والتذكر والتهجد حتى أتاه اليقين ، وختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾[القمر: ٥٤ ـ ٥٥] »[1] .

وهكذا أراد خصومة أن يحبسوا كلمته الحرة الصادقة حتى لا تصل للناس ، فيتحرروا من سلطان الخرافة ، وقيود الأوهام ، وأغلال الهوى ، ووصل بهم الأمر إلى انتزاع الأوراق والأقلام منه ، كل ذلك خوفًا ورعبًا من كلماته الناطقة بالحق واليقين !

لكنَّ مرادهم خاب وخسر ، فهذه هي كلمات الإمام ابن تيميه تملأ العالم كله ، وهذه كتبه ـ ولله الحمد ـ تُطبع وتُوزع في كل مكان والناس مقبلة برغبة عارمة على كتبه وكلماته ، وفي كل فن وعلم .

وهنا أتذكر ما قاله أحد العلماء الأفاضل في زمن ابن تيمية ، حينما كتب رسالة إلى تلاميذ شيخ الإسلام بعد وفاته ـ رحمه الله ـ يوصيهم بكتب الشيخ ، ويحثهم على نشر علمه ، ويطب خواطرهم بأن المستقبل للحق بإذن الله .

---

(١) « العقود الدرية » ، ص : (٣٨٤) .



يقول أحمد بن مري الحنبلي في رسالته : « والله ـ إن شاء الله ـ ليقيمن الله ـ سبحانه ـ لنصر هذا الكلام ، ونشره وتدوينه وتفهمه ، واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه رجالًا هم إلى الآن في أصلاب آبائهم، وهذه هي سنة الله الجارية في عباده وبلاده »[1].

فتأمل أخي القارئ الكريم كيف ظهر أمر شيخ الإسلام ابن تيمية وطارت كتبه في الآفاق ، ووصلت كلمته إلى أقاصي المشرق والمغرب ، ونال مئات من الباحثين الدرجات العلمية في دراسة علمه في شتى الفنون ، وكتبت فيه الآف الكتب ، وأصبح اسمه على كل لسان ، وفي المقابل أمسى كثير من أعدائه لا يذكرون بأسمائهم ، وإذا ذكروا فإنَّما يذكرون لاقترانهم بحوادث تعرض لها ابن تيميه ـ رحمه الله ـ ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .

---

(١) « الوصية » ـ ابن مري الحنبلي ، تحقيق : فهد بن معقد العتيبي ، ص : (١٣٩ ـ ١٤٠) الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ، دار بلنسية ـ الرياض .

الفصل الثالث

موقف ابن تيميه من تكفير المسلمين

تمهيد

من المسائل المهمة والخطيرة والتي كثيرًا ما يُثيرها خصوم الدعوة السلفية عمومًا وابن تيمية خصوصًا : (مسألة التكفير) . حيث كتبوا بهذا الصدد الكثير من الكتب ، لكن مما يؤسف له أنَّهم كثيرًا ما يحيفون في حكمهم في هذه المسألة بالذات ، ويتهمون ابن تيمية بشكل خاص بأنَّه مُنَظِّرُ التكفير ، ومؤسس الإقصاء !

ومَن يتأمل جوهر مذهب ابن تيمية يعلم عِلمًا يقينيًّا أنَّه بريء مِمَّا يتهمونه به ، وأنَّه كذلك بريء من التفريط والإفراط ، ولبيان هذه المسألة بشكل واضح لا بُدَّ من توضيح بعض الأمور المهمة في هذا الموضوع ، ولذا سينقسم حديثنا إلى مبحثين :

الأول : مقدمات في مسألة التكفير .

الثاني : موقف ابن تيمية من التكفير .



المبحث الأول
مقدمات في مسألة التكفير

قبل الحديث عن مسألة التكفير وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - منها ، أودُّ أن أضع بين يدي القارئ الكريم بعض المقدمات والقواعد المنهجية التي أرى أنَّها ضرورية في معالجة هذه المسألة ، حتى لا نهرب من إفراط فيها إلى تفريط ، والفضيلة هي الوسط العدل الذي يقع بين رذيلتين ، وهذا الوسط هو حقيقة روح الإسلام ومعدن الشريعة التي فصلت وبينت هذه المسألة ، وسار على ذلك السلف الصالح - رضوان الله عليهم - .

وهذه مقدمات مهمة في مسألة التكفير :

(١) التكفير موجود في كل دين ، وفي كل مذهب ، وفي كل فكرة ، ودين ليس فيه أصولٌ يكفر من ينكرها ليس بدين ، وهذا أمر تتفق عليه جميع الديانات السماوية ، كالإسلام واليهودية والنصرانية ، بل إنَّ الإيديولوجيات الوضعية كالشيوعية والعلمانية وغيرها يكون تكفيرها بإخراج من لم يؤمن بأصولها عن دائرتها [١] .

(٢) التكفير حكم شرعي لا ينكر ، فهو من أحكام الله وأحكام

---

(١) أقول : انظر تكرمًا الفصل الخامس من هذا البحث وهو بعنوان : « موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج » .



رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وإنَّما الإنكار على من توسع وغلا وأفرط فيه ، أو كفَّر مُسلمًا .

(٣) كل طائفة إسلامية قد تقرر عندها مبدأ التكفير ، لكن أهل السنة والجماعة هم الوسط في هذا الباب ، وهم أضبط وأعدل وأقسط الناس فيه ، ومنهجهم في ذلك معلوم منضبط .

(٤) أنَّ عدم التكفير مُطلقًا ليس مفخرة ولا منقبة ، **لأمرين** : أنَّ هذا مناف للواقع وتكذيب للواقع ، ثم هو يناقض فكرة الإيمان بفكرة محددة لها أصول ثابته .

(٥) لا توجد طائفة أو فرقة أو دين إلَّا ، ويمارس فيه الإقصاء للمخالف . وأعدل ، وأضبط ، وأرحم الخلق في تعاملهم مع المخالفين هم أهل السنة والجماعة .

(٦) وعقيدة أهل السنة والجماعة منهج ومبدأ وليست أشخاصًا، وهي الإسلام بنقائه وصفائه ، وكما أنَّ حال أفراد المسلمين اليوم ليسوا بحجة على الإسلام ، فكذلك الحال بالنسبة لأفراد أهل السنة ، فالحجة في منهجهم وأصولهم لا بأفرادهم .

(٧) أنَّ الواقع والتاريخ والنصوص تدلُّ وتثبت أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة هم ضحية التكفير والعنف و الإقصاء من قبل



الآخرين الذين يوصفون بالعقلانية والتنوير والتسامح . فلقد كفر الإمام أحمد واستحل دمه ، وعذب وضرب بالسياط حتى سقط ، وسجن ، وقتل خلق من أنصاره ، ومنعوا من الحد ، وضربت عنق الإمام أحمد بن نصر المروزي ، وصلب مدة طويلة ، وامتحن علماء السلف في إيمانهم في فتنة خلق القرآن ، وفصلوا من أعمالهم ، وقطعت أرزاقهم ، وكفر ابن تيميه ، وسجن وضرب وعذب ، ونالته الألسن بالألفاظ البذيئة ، في زمنه وحتى عصرنا هذا ... والقائمة طويلة .

(٨) أنَّ الأخطاء والانحرافات التي تتماشى وتتفق مع أصول المذهب ويقرها ، هي ما يدان به المذهب أو تدان به الطائفة وليست أخطاء الأفراد أو الجماعات التي أصولهم منهجهم ومذهبهم يرفضها ويدينها ويرد عليها .



المبحث الثاني
موقف ابن تيمية من التكفير

تناولت الكثير من الدراسات العلمية والأكاديمية المنصفة موقف شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من التكفير ، وأبانت بشكل واضح وجلي حقيقة آراء ابن تيميه ، وأنَّها لا تختلف في شيء عن مذهب أهل السنة والجماعة ، مذهب العدل والرحمة بالمسلمين وبالناس جميعًا .

ونحن هنا لسنا بصدد عرض موقف ابن تيمية بالتفصيل ، بل بصدد عرض موجز لأهم آراء وأقوال وأفكار ابن تيميه حول مسألة التكفير وموقفه من المخالفين ، والتي أطال أهل الخلاف فيها الكلام ، وامتدت ألسنتهم الحداد ضد ابن تيمية واتهموه بما ليس فيه ، وقولوه ما لم يقله .

وأنا هنا أضع بين يديك ـ أخي القارئ الكريم ـ كلام ابن تيمية نفسه ، وتطبيقاته العملية ، ليتضح لك ، ولكل منصف حقيقة موقف ابن تيمية .

إن أول أمر يقرره ـ رحمه الله ـ هو ما قرره أهل السنة والجماعة من أن التكفير حكم الله ـ عز وجل ـ ، وحكم رسوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وأن التعدي على المسلم بالتكفير من أعظم الأمور شناعة ، وأكثرها بشاعة ، وأخطرها أثرًا على الإسلام والمسلمين .

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه : « وليس لأحد أن يُكَفِّرَ أحدًا من المسلمين ، وإن أخطأ وغلط ، حتى تُقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة ،



ومن ثبت إسلامه بيقين ، لم يزلْ ذلك عنه بالشك »[1].

وقال : « ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ، ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة »[2].

وقال مؤكدًا منهجه الذي لا يحيد عنه : « هذا مع أنِّي دائمًا ، ومن جالسني يعلم ذلك مني ، أني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية ، إلَّا إذا علم أنَّه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة ، وفاسقًا أخرى ، وعاصيًا أخرى »[3].

وبعد بيان خطورة التكفير ، وضرورة التحرى فيه ، ويبين المنهج السني في مسألة التكفير ، وأنَّ أهل السنة والجماعة يفرقون في أحكام التكفير بين التكفير المطلق (جنس التكفير) وبين تكفير المعين ؛ لأنَّ للتكفير شروطًا لا بُدَّ من تحققها ، وموانع لا بُدَّ من ارتفاعها حتى يتحقق الحكم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين ، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين ، إلَّا إذا وجدت الشروط ، وانتفت الموانع ، يُبين هذا أنَّ الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات ، لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه »[4].

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (١٢ / ٤٦٦) .

(٢) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٨٢)

(٣) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٢٩) .

(٤) « مجموع الفتاوى » : (١٢ / ٤٨٧) .



ويقول : « وكنت أُبَيِّنُ لهم أن ما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق ، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين ، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار ، وهي مسألة الوعيد فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: ١٠] الآية ، وكذلك سائر ما ورد « من فعل كذا فله كذا » . فإن هذه مطلقة عامة وهي بمنزلة قول من قال من السلف : « من قال كذا فهو كذا » . ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة ، أو حسنات ماحية أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة »[١] .

ويعتبر ابن تيمية أنَّ هذا المنهج الصارم المنضبط في التكفير هو من خصائص أهل السنة والجماعة ، والذي فارقوا فيه أهل الخلاف الذين توسعوا في التكفير ، وكفروا غيرهم من المسلمين لأجل مخالفتهم في مذهبهم الذي وضعوه من تلقاء أهوائهم وعقولهم وأذواقهم[٢] !

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا ، ومن ممادح أهل العلم أنَّهم يخطئون ولا يكفرون ، وسبب ذلك أنَّ أحدهم قد يظن ما ليس بكفر كفرًا ، وقد يكون كفرًا لأنَّه تبيَّن له أنَّه تكذيب للرسول وسب للخالق ، والآخر لم يتبيَّن له ذلك ، فلا يلزم

(١) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٣٠) .

(٢) أقول : انظر تكرمًا الفصل الخامس من هذا البحث وهو بعنوان : « موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج » .



إذا كان هذا العالم بحاله يكفر إذا قاله أن يكفر من لم يعلم بحاله »[١].

وقال : « وأئمة السنة و الجماعة ، وأهل العلم والإيمان ، فيهم العلم والعدل والرحمة ، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة ، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[المائدة: ٨] ويرحمون الخلق ، فيريدون لهم الخير والهدى والعلم ، لا يقصدون الشر لهم ابتداء ، بل إذا عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم ، كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا »[٢].

ثم يبسط ابن تيميه كلامه في بيان منهج أهل السنة في عذر المخالف ، وبيان أنَّهم من أرحم الناس بالمخالفين ، ويقول رادًّا على أهل الخلاف ومبينًا لهم المنهج الوسط العدل لأهل السنة : «قُلْتُ لَهُمْ : وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ خَالَفَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الِاعْتِقَادِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَالِكًا ، فَإِنَّ الْمُنَازِعَ قَدْ يَكُونُ مُجْتَهِدًا مُخْطِئًا يَغْفِرُ اللهُ خَطَأَهُ ، وَقَدْ لَا يَكُونُ بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ مِنْ الْحَسَنَاتِ مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِه»[٣].

---

(١) « منهاج السنة النبوية » : (٥ / ٢٥١) .

(٢) « تلخيص كتاب الاستغاثة » ـ تحقيق : محمد على عجال : (٢ / ٤٩٠) مكتبة الغرباء الأثرية الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .

(٣) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ١٧٩) .



قال : « وأما التكفير ، فالصواب أنَّه من اجتهد من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد الحق فأخطأ لم يكفر ، بل يغفر له خطأه ، ومن تبين له ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فشاق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بعد ما تبيَّن له الهدى وابتع غير سبيل المؤمنين ، فهو كافر ، ومن اتبع هواه وقصر في طلب الحق ، وتكلم بلا علم فهو عاص مذنب ، ثم قد يكون فاسقًا وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته . فالتكفير يختلف بحسب حال الشخص ، فليس كل مخطئ ولا مبتدع ولا جاهل ولا ضال يكون كافرًا ، بل ولا فاسقًا ، بل ولا عاصيًا »(١).

وقال : « الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ ، فإن الله يغفر له خطأه كائنًا ما كان ، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية ، هذا الذي عليه أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجماهير أئمة الإسلام »(٢).

ثم يُبَيِّنُ ـ رحمه الله ـ موقف أهل الخلاف من أهل السنة والجماعة ، وموقف أهل السنة من أهل الخلاف ، فيقول : « الخوارج تكفر أهل الجماعة ، وكذلك المعتزلة يكفرون من خالفهم ، وكذلك الرافضة ، ومن لم يكفر فسق ، وكذلك أكثر أهل الأهواء يبتدعون رأيًا ويكفرون من خالفهم فيه .

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (١٢ / ١٨٠) .

(٢) « مجموع الفتاوى » : (٢٣ / ٣٤٦) .



وأهل السنة يتبعون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ولا يكفرون من خالفهم فيه، بل هم أعلم بالحق وأرحم بالخلق» [1].

وقال: «الخوارج هم أول من كَفَّرَ المسلمين، يُكَفِّرُونَ بالذنوب، ويُكَفِّرُونَ من خالفهم في بدعتهم، ويستحلون دمه وماله. وهذه حل أهل البدع يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها، وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسُّنَّة ويطيعون الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فيتبعون الحق ويرحمون الخلق» [2].

ويُبيِّن ابن تيمية بكل وضوح موقفه الشخصي ممن كفره من أهل الخلاف، ليتبين للمنصفين أنه ـ رحمه الله ـ هو العالم الذي يحتذى بكل تجرد منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع المخالفين، وأنَّهم لا يقابلون التكفير بالتكفير، ولا التفسيق بالتفسيق، ولا الشتم والسباب بمثلها.

يقول ابن تيمية: «هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني، فإنَّه وإن تعدَّى حدود الله في بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء، أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدَّى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل، وأجعله مؤتمّا بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس حاكمًا فيما اختلفوا فيه» [3].

---

(١) «منهاج السنة»: (٥ / ١٥٨).
(٢) «مجموع الفتاوى»: (٣ / ٢٧٩).
(٣) «مجموع الفتاوى»: (٣ / ٢٤٥).



وقال مبينًا أنَّ ذلك هو منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة :

« فلهذا كان أهل العلم والسُّنَّة لا يُكَفِّرُون من خالفهم ، وإن كان ذلك المخالف يُكَفِّرُهُمْ ؛ لأنَّ الكفر حكم شرعي ، فليس للإنسان أن يُعاقب بمثله ، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ، ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله ؛ لأنَّ الكذب والزنا حرام لحق الله - تعالى - ، وكذلك التكفير حق لله ، فلا يُكَفَّرُ إلَّا مَنْ كَفَّرَهُ اللهُ ورسولُه » [1].

وهذا الكلام من ابن تيمية - رحمه الله - ليس كلامًا تنظيريًّا بحتًا لا رصيد له من الواقع ، بل تجد صداه في ممارساته العملية الكثيرة مع المخالفين ، فكم مرة كفروه واعتدوا عليه ، وهو يقابل ذلك بالصفح والعفو ، والاعتذار لمخالفيه والتماس المبررات لهم .

يقول: « كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أنَّ الله - تعالى - فوق العرش لـمَّا وقعت محنتهم : أنا لو وافقتكم كنت كافرًا ، لأنِّي أعلم أنَّ قولكم كفر ، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال ، وكان هذا خطابا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم ، وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له » [2].

ثم يطبق ذلك عمليًّا ، حيث قام أحد شيوخ الصوفية وهو الشيخ على

---

(١) « تلخيص كتاب الاستغاثة » : (٢ / ٤٩٢) .

(٢) « تلخيص كتاب الاستغاثة » : (٢ / ٤٩٤) .



البكري بتكفير ابن تيمية والاعتداء عليه جسديًا ، ومع ذلك لم يَحِدِ ابن تيمية عن منهجه المعتدل .

قال : « لم نقابل جهله - أي البكري الصوفي - وافتراءه بالتكفير بمثله، كما لو شهد شخص بالزور على شخص أو قذفه بالفاحشة كذبًا عليه ، لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ، ولا أن يقذفه بالفاحشة » (١).

ثم يوصي ابن تيميه عموم الطوائف والفرق الإسلامية بوصية هامة جدًا ، وهي تجنب التكفير واستحلال الدم فيما بينها ، حيث يقول :

« فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ أَنْ تُكَفِّرَ الْأُخْرَى وَلَا تَسْتَحِلَّ دَمَهَا وَمَالَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِيهَا بِدْعَةٌ مُحَقَّقَةٌ ؛ فَكَيْفَ إذَا كَانَتْ الْمُكَفِّرَةُ لَهَا مُبْتَدِعَةً أَيْضًا ؟ وَقَدْ تَكُونُ بِدْعَةُ هَؤُلَاءِ أَغْلَظَ وَالْغَالِبُ أَنَّهُمْ جَمِيعًا جُهَّالٌ بِحَقَائِقِ مَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ » (٢).

ثم يُبَيِّنُ - رحمه الله - بشكل جلي وواضح حقيقة مذهب السلف ، ويزيل عنه اللبس ، فيقول :

« طَائِفَةٌ تَحْكِي عَنْ أَحْمَدَ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ رِوَايَتَيْنِ مُطْلَقًا ، حَتَّى تَجْعَلَ الْخِلَافَ فِي تَكْفِيرِ الْمُرْجِئَةِ وَالشِّيعَةِ الْمُفَضِّلَةِ لِعَلِيٍّ ، وَرُبَّمَا رَجَّحَتْ التَّكْفِيرَ وَالتَّخْلِيدَ فِي النَّارِ ، وَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبَ أَحْمَد ، وَلَا غَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ لَا يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ إنَّهُ لَا يُكَفِّرُ الْمُرْجِئَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْإِيمَانُ

---

(١) « تلخيص كتاب الاستغاثة » : (٢ / ٤٩٤) .

(٢) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٨٣) .



قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ ، وَلَا يُكَفِّرُ مَنْ يُفَضِّلُ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ ، بَلْ نُصُوصُهُ صَرِيحَةٌ بِالِامْتِنَاعِ مِنْ تَكْفِيرِ الْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . وَإِنَّمَا كَانَ يُكَفِّرُ الْجَهْمِيَّةَ الْمُنْكِرِينَ لِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ ؛ لِأَنَّ مُنَاقَضَةَ أَقْوَالِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ : وَلِأَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ تَعْطِيلُ الْخَالِقِ ، وَكَانَ قَدْ اُبْتُلِيَ بِهِمْ حَتَّى عَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّهُ يَدُورُ عَلَى التَّعْطِيلِ وَتَكْفِيرُ الْجَهْمِيَّةِ مَشْهُورٌ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ.

لَكِنْ مَا كَانَ يَكْفُرُ أَعْيَانُهُمْ ، فَإِنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْقَوْلِ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَقُولُ بِهِ ، وَالَّذِي يُعَاقِبُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَدْعُو فَقَطْ ، وَالَّذِي يُكَفِّرُ مُخَالِفَهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يُعَاقِبُهُ ، وَمَعَ هَذَا ؛ فَالَّذِينَ كَانُوا مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ يَقُولُونَ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ : إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَيَدْعُونَ النَّاسَ إلَى ذَلِكَ ، ويمتحنونهم وَيُعَاقِبُونَهُمْ إذَا لَمْ يُجِيبُوهُمْ وَيُكَفِّرُونَ مَنْ لَمْ يُجِبْهُمْ . حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا أَمْسَكُوا الْأَسِيرَ لَمْ يُطْلِقُوهُ حَتَّى يُقِرَّ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ : إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَلَا يُوَلُّونَ مُتَوَلِّيًا ، وَلَا يُعْطُونَ رِزْقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ إلَّا لِمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ ، وَمَعَ هَذَا ؛ فَالْإِمَامُ أَحْمَد ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ تَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُمْ لِمَنْ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ ، وَلَا جَاحِدُونَ لِمَا جَاءَ بِهِ ، وَلَكِنْ تَأَوَّلُوا فَأَخْطَئُوا ، وَقَلَّدُوا مَنْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ » (١).

يقول ـ رحمه الله ـ أيضًا : « فَإِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَد ـ مَثَلًا ـ قَدْ بَاشَرَ « الْجَهْمِيَّةَ » الَّذِينَ دَعَوْهُ إلَى خَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَنَفْيِ الصِّفَاتِ ، وَامْتَحَنُوهُ وَسَائِر عُلَمَاءِ

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (٢٣ / ٣٤٦ـ٣٤٩) .



وَقْتِهِ، وَفتَنُوا الْـمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ الَّـذِينَ لَـمْ يُوَافِقُوهُمْ عَلَى التَّجَهُّمِ بِالضَّرْبِ ، وَالْحَبْسِ ، وَالْقَتْلِ ، وَالْعَزْلِ عَنِ الْوِلَايَاتِ ، وَقَطْعِ الْأَرْزَاقِ ، وَرَدِّ الشَّهَادَةِ ، وَتَرْكِ تَخْلِيصِهِمْ مِنْ أَيْدِي الْعَدُوِّ ، بِحَيْثُ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أُولِي الْأَمْرِ ؛ إِذْ ذَاكَ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ مِنَ الْوُلَاةِ وَالْقُضَاةِ وَغَيْرِهِمْ : يُكَفِّرُونَ كُلَّ مَنْ لَـمْ يَكُنْ جهميًا مُوَافِقًا لَهُمْ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ ، مِثْلِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَيَحْكُمُونَ فِيهِ بِحُكْمِهِمْ فِي الْكَافِرِ ، فَلَا يُوَلُّونَهُ وِلَايَةً ، وَلَا يُفْتِكُونَهُ مِنْ عَدُوٍّ ، وَلَا يُعْطُونَهُ شَيْئًا مِنْ بَيْتِ الْـمَالِ ، وَلَا يَقْبَلُونَ لَهُ شَهَادَةً ، وَلَا فُتْيَا وَلَا رِوَايَةً ، وَيَمْتَحِنُونَ النَّاسَ عِنْدَ الْوِلَايَةِ ، وَالشَّهَادَةِ وَالِافْتِكَاكِ مِنَ الْأَسْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَمَنْ أَقَرَّ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ؛ حَكَمُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَـمْ يُقِرَّ بِهِ ؛ لَـمْ يَحْكُمُوا لَهُ بِحُكْمِ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ كَانَ دَاعِيًا إِلَى غَيْرِ التَّجَهُّمِ قَتَلُوهُ أَوْ ضَرَبُوهُ وَحَبَسُوهُ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مِنْ أَغْلَظِ التَّجَهُّمِ ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ إِلَى الْـمَقَالَةِ أَعْظَمُ مِن قَوْلِهَا ، وَإِثَابَةُ قَائِلِهَا وَعُقُوبَةَ تَارِكِهَا أَعْظَمُ مِنْ مُجَرَّدِ الدُّعَاءِ إِلَيْهَا ، وَالْعُقُوبَةُ بِالْقَتْلِ لِقَائِلِهَا أَعظَمُ مِنْ الْعُقُوبَةِ بِالضَّرْبِ ، ثُمَّ إِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَد دَعَا لِلْخَلِيفَةِ وَغَيْرِهِ . مِمَّنْ ضَرَبَهُ وَحَبَسَهُ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وحَلَّلَهُمْ مِمَّا فَعَلُوهُ بِهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالدُّعَاءِ إِلَى الْقَوْلِ الَّذِي هُوَ كُفْرٌ ، وَلَوْ كَانُوا مُرْتَدِّينَ عَنْ الْإِسْلَامِ لَـمْ يَجُزْ الِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ ؛ فَإِنَّ الِاسْتِغْفَارَ لِلْكُفَّارِ لَا يَجُوزُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ وَالْأَعْمَالُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُمْ لَـمْ يُكَفِّرُوا الْـمُعَيَّنِينَ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ » [1] .

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (١٢ / ٤٨٨-٤٨٩) .

ثم يُقدِّمُ ابن تيمية رؤية أهل السنة والجماعة لأهل الخلاف ، الرؤية القائمة على العدل والرحمة والرأفة بهم ، وإجراء أحكام القرآن والسُّنة عليهم ، بعيدًا عن تحكم الأهواء المذهبية ، والرغبات الطائفية ، والتي كثيرًا ما دفعت الطائفيين والمذهبيين إلى ظلم المخالف ، والتعدي عليه بغير حق .

يقول ابن تيمية : « إنَّ المتأول الذي قَصْدُه متابعة الرسول لا يُكَفَّرُ ، بل ولا يُفَسَّقُ إذا اجتهد ؛ فأخطأ ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية ، وأما مسائل العقائد ، فكثير من الناس كفر المخطئين فيها ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا عن أحد من أئمة المسلمين ، وإنَّما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ، ويكفرون من خالفهم ، كالخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية، ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة ، كبعض أصحاب مالك ، والشافعي وأحمد وغيرهم » [1].

ويقول : « فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وما جاء به ، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع ، فهذا ليس بكافر أصلًا » [2].

ثم يعرض ابن تيمية جملة من أصناف أهل الخلاف مبينا موقفه منهم ، كممارسة تطبيقية لآرائه وأقواله السالفة ، ليقف القارئ الكريم على مصداقية توافق منهج ابن تيمية وأقواله مع أعماله وتطبيقاته ، وليقف

---

(١) « منهاج السنة » : (٥/ ٢٣٩ - ٢٤٠) .
(٢) « مجموع الفتاوى » : (٧/ ٢١٧) .



بنفسه أمام هذه النفسية الكبيرة القائمة على العدل والرحمة والإنصاف بحق المخالفين .

إن تلك النفس المؤمنة العظيمة هي التي أثرت في ابن تيمية في تعامله مع الطوائف والفرق المخالفة ، فابن تيمية - أولًا وقبل كل شيء - باحث عن الحق ، ومن مهمة الباحث العلمي أن يعري ويكشف حقائق الأفكار وزيفها وصدقها ؛ لأنَّه يقوم بمهمة علمية يفترض فيه الأمانة والصدق والصراحة مع العدالة والرحمة ، ومع ما يوصف به ابن تيمية من الحدة والقوة في الجدل ، إلَّا أنَّه أنصف أشد الطوائف بعدًا عن عقيدة أهل السنة .

فحينما تناول شيخ الإسلام الجهمية والخوارج والشيعة بالنقد والتحليل ، لم تمنعه مخالفتهم والرد عليهم ونقض أصولهم أن ينصفهم ويعدل معهم ، ونصوصه في ذلك كثيرة .

فقد تحدث عن طائفة الخوارج ، ومما قاله فيهم :

« وَالْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ الَّذِينَ أَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقِتَالِهِمْ قَاتَلَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَحَدُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَاتَّفَقَ عَلَى قِتَالِهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَلَمْ يُكَفِّرْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الصَّحَابَةِ ، بَلْ جَعَلُوهُمْ مُسْلِمِينَ مَعَ قِتَالِهِمْ ، وَلَمْ يُقَاتِلْهُمْ عَلِيٌّ حَتَّى سَفَكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَأَغَارُوا عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَاتَلَهُمْ لِدَفْعِ ظُلْمِهِمْ وَبَغْيِهِمْ لَا لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ ، وَلِهَذَا لَمْ يَسْبِ حَرِيمَهُمْ وَلَمْ يَغْنَمْ أَمْوَالَهُمْ .



وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ثَبَتَ ضَلَالُهُمْ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ لَمْ يُكَفَّرُوا مَعَ أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ بِقِتَالِهِمْ ، فَكَيْفَ بِالطَّوَائِفِ الْمُخْتَلِفِينَ الَّذِينَ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ فِي مَسَائِلَ غَلِطَ فِيهَا مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ ؟ »(١) .

وحينما تحدث ابن تيمية عن المعتزلة وبعض رجالاتها ، تكلم فيهم بعدل وصدق وإنصاف ، ولم يدفعه خلافه معهم إلى الكذب عليهم ، أو ظلمهم أو التعدي عليهم .

فهما هو يقول عن أحد أبرز رجالات المعتزلة: «فَعَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالُهُ لَمْ يَكُنْ أَصْلُ مَقْصُودِهِمْ مُعَانَدَةُ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ »(٢) .

وقال عن المعتزلة : إنَّهم مع مخالفتهم نصروا الإسلام في مواطن كثيرة وردوا على الكفار والملاحدة بحجج عقلية(٣) .

وقد عاب شيخ الإسلام ابن تيمية على ابن فورك الأشعري تكفيره المعتزلة ، وتأليب الحكام عليهم . يقول ـ رحمه الله ـ عن ذلك :

« قَصَدَ بِنَيْسَابُورَ الْقِيَامَ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي اسْتِتَابَتِهِمْ ، وَكَمَا كَفَّرَهُمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَمَنْ لَمْ يَعْدِلْ فِي خُصُومِهِ وَمُنَازَعِيهِ وَيَعْذُرْهُمْ بِالْخَطَأِ فِي الاجْتِهَادِ ، بَلْ ابْتَدَعَ بِدْعَةً وَعَادَى مَنْ خَالَفَهُ فِيهَا أَوْ كَفَّرَهُ فَإِنَّهُ هُوَ ظَلَمَ نَفْسَهُ. وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَيَرْحَمُونَ الْخَلْقَ؛ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ فَلَا يَبْتَدِعُونَ. وَمَنْ اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ خَطَأً يَعْذُرُهُ فِيهِ الرَّسُولُ ـ صَلَّى

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٨٢) .
(٢) « مجموع الفتاوى » : (١٧ / ٤٤٦) .
(٣) انظر : « درء التعارض » : (٧ / ١٠٦ـ١٠٧) .



اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَذَرُوهُ »[1].

وهذا هو ابن تيمية يتحدث عن مخالفيه من أهل الكلام « الماتريدية والأشاعرة » فيقول عنهم : « إنَّه ما من هؤلاء مَن له في الإسلام مساع مشكوره ، وحسنات مبرورة ، وله في الرد على كثير من أهل الألحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف »[2].

ويتحدث عن الأشاعرة بالذات مع مخالفته لهم في كثير من الأصول والفروع ، فيقول :

« إنَّهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة ، وهو يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم ، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم »[3].

وحينما تحدث ابن تيمية عن الشيعة ردَّ عليهم مخالفاتهم بأسلوب علمي رصين ، قائم على البراهين والأدلة العقلية والنقلية ومع مخالفتهم الكبيرة لأهل السنة ، ومباينتهم العظيمة لأهل الجماعة ، إلَّا أنَّ ذلك لم يمنع ابن تيمية من إنصافهم والعدل معهم .

فيقول وهو يتحدث عن طائفة الشيعة الجعفرية الإمامية : « كثيرًا

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (١٦ / ٩٦) .
(٢) « درء التعارض » : (٢ / ١٠٢) .
(٣) « نقض التأسيس » : (٢ / ٨٧) .



منهم ليسوا منافقين ولا كفارًا ، بل بعضهم له إيمان وعمل صالح ، ومنهم مَن هو مخطئ يغفر له خطاياه ، ومنهم من هو صاحب ذنب يرجى له مغفرة الله »[1].

وقال : « والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد »[2].

وقال منصفًا الشيعة : « وينبغي أيضًا أن يُعلم أنَّه ليس كل ما ينكره بعض الناس عليهم يكون باطلًا ، بل من أقوالهم أقوال خالفهم فيها بعض أهل السنة ووافقهم بعضهم ، والصواب مع من وافقهم »[3].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن لهم جهودًا في دعوة الكفار إلى الإسلام ، فدخل على أيديهم أناس من الكفار ، هذا مع إيمانه وتصريحه باشتمال مذهبهم على جملة من الضلالات والمكفرات في الإسلام.

ويُبَيِّنُ ابن تيمية نقطة مهمة جدًّا في أخلاقيات السلف الصالح أهل السنة والجماعة مع مخالفيهم ، وهي الرحمة بهم والعدل معهم أكثر من رحمتهم لبعضهم البعض !

قال ابن تيمية : « فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم ، فإنَّ الظلم حرام مطلقًا كما تقدم ، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض ، بل هم الرافضة خير واعدل من بعض الرافضة لبعض ، وهذا مما يعترفون هم به ويقولون : « أنتم تنصفوننا ما لا

---

(١) « منهاج السنة » : (٦/ ٣٠٢) .
(٢) « منهاج السنة » : (٥/ ١٥٧) .
(٣) « منهاج السنة » : (١/ ٤٤) .



ينصف بعضنا بعضًا » .. ولا ريب أنَّ المسلم العالم العادل أعدل عليهم وعلى بعضهم من بعض » [1].

وكان ـ رحمه الله ـ عمومًا من أشد الناس رحمة بالمسلمين بشكل خاص، وبالمخالفين بشكل عام ، فهذا الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي يقول :

« رأيت للأشعري كلمة أعجبتني ، وهي ثابتة رواها البيهقي ، سمعت أبا حازم العبدوي سمعت زاهر بن أحمد السرخسي يقول : لما قَرُبَ حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد ، دعاني فأتيته ، فقال : « اشهد على أنّي لا أُكَفِّرُ أحدًا من أهل القبلة ؛ لأنَّ الكل يشيرون إلى معبود واحد ، وإنَّما هذا كله اختلاف العبارات » قلت ـ أي الذهبي ـ : وبنحو هذا أدين ، وكذا كان شيخنا ابن تيميه في أواخر أيامه يقول : أنا لا أُكَفِّرُ أحدًا من الأمة ، ويقول : قال النبي ﷺ: « لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » ، فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم » [2].

فانظر أخي القارئ الكريم ـ وأنت قد قرأت تلك النصوص ، وقد عرفت مصدرها من كتب ابن تيمية ـ إلى موقف ابن تيمية من المسلمين ، وكيف كان يتعامل مع مخالفيه بالرحمة والعدل والحق ، وأظنه قد تبين لك بشكل جلي وواضح أقوال الرجل ومنهجه في هذه المسألة ، وعليه كيف نقبل قول القائل ، وزعم الزاعم : « إن ابن تيمية كان مكفرا للمسلمين ،

---

(١) « منهاج السنة النبوية » : (٥ / ١٥٧ ـ ١٥٨) .
(٢) « سير أعلام النبلاء » : (١٥ / ٨٨) .



ساعيا في تفريقهم ، باذلا جهده للطعن فيهم » ، وهذه نصوص ابن تيمية شاهدة بزيف هذا الادعاء وبطلانه جملة وتفصيلا ؟ !

الفصل الرابع

سيرة ابن تيمية العملية مع مخالفيه

« فجرت بينه وبينهم حملات حربية ، ووقعات شامية ومصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله تعالى ، فإنه دائم الابتهال ، كثير الاستغاثة قوي التوكل ثابت الجاش ، له أوراد وأذكار يدمنها » .

[الحافظ الذهبي « الرد الوافر » ، لابن ناصر الدين ، ص : (٧١)] .



تَمْهِيدٌ

ليست هناك شخصية عظيمة في تاريخنا الإسلامي المتأخر ظُلمت في عصرها ـ وبعده ـ مثل شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ، فالعصر الذي عاش فيه ، وما تعرض له من عداء ، وهجوم ، وسجن ، وتعذيب ، واعتداء خير شاهد على هذا الظلم .

بل إنَّ مرارة الظلم تزداد تجاه هذه الشخصية الكبيرة حينما نجد من يدعي الثقافة والمعرفة والعقلانية والحرية ، ثم يقف في صف السجان ضد المسجون ، وفي خندق الظالم ضد المظلوم ، ويتحالف مع المكفر ضد ضحية التكفير !

ولو تأمل هؤلاء بطريقة علمية رصينة أقوال وأفعال وسيرة ابن تيمية ، لما ظلموا أنفسهم بظلمهم له ، حيث تكلموا فيه بغير علم ، بل بجهل وهوى وتقليد أعمى منعهم من معرفته على حقيقته الناصعة .

فالرجل ـ أي ابن تيمية ـ كان يحكمه في جل تصرفاته مع مخالفيه ميزان العدل والرحمة ، وكان كلمة إجماع عند عقلاء العلماء ، ومحل محبة الناس ، وكانت سيرته الخالدة رمزا للعدالة و التسامح ومحبة الناس ، والتضحية من أجل الحق .

قال الإمام الذهبي عنه : « وسائر العامة تحبه ؛ لأنَّه منتصب لنفعهم ليلا ونهارا ، بلسانه وقلمه » [1].

---

(١) « الرد الوافر » ، ص : (٧١) .



وجميل ما ذكره العلامة الإمام ابن طرخان الملكاوي في حق أعداء ابن تيمية، حيث قال: «لو دروا ما يقول لرجعوا إلى محبته وولائه»[1].

وقال القاضي بهاء الدين السبكي: «والله ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به»[2].

وليس الغرض هنا ـ أخي القارئ الكريم ـ عرض جميع سيرة ابن تيمية الطيبة والسمحة مع مخالفيه، بل المقصود عرض شيء يسير من مواقفه التسامحية لبيان الصورة الحقيقية والناصعة للروح التي كان ابن تيمية يقابلها كراهية وعداء خصومة.

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيميه يدرك أن الاختلاف أمر طبعي، بل حتمي في هذا الكون، وهذه سنة إلهية، حيث بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّ الناس في اختلاف، وأنَّهم لا يزالون كذلك، وأنَّ الخلاف لا يعرف أحقيته أو بطلانه كثرة الأعداد أو قلتها، وأنَّ الحق لا يرتبط بالأشخاص ولا بالدول ولا بالمؤسسات، والحق أصيل وقديم، وهو الغالب بالكلمة والحجة والبرهان، وأنَّ الحق لا يحتاج إلى أشخاص يجيدون الشتائم والسباب، بل الحوار الهادف، والنقد البناء، فالحق في صراعه مع الباطل ظاهر في مآلاته، ويوم يرث الله الأرض ومن عليها لن يكون للباطل وأهله كلمة ولا صولة ولا جولة.

---

(١) «الرد الوافر»، ص: (١٤١).
(٢) «الرد الوافر»، ص: (٩٩).

ومن إيمان ابن تيمية الراسخ بالحق ، ورحمته بالخلق كانت مواقفه النابعة من العدل والرحمة والتسامح تجاه مخالفيه ، مواقف عدل حقيقية ، قائمة على بيان الحق بوضوح ، والعدل مع الخصوم ، وليست المسألة عنده لعبة سياسية ، أو مجرد نفاق ، أو خوف و(تقية) أو رغبة لتحصيل منافع دنيوية عاجلة .

كما أنَّ مواقفه العادلة الأصلية لم تكن في حال ا لضعف ، بل كانت في مواقف القوة والغلبة ، ومع كون الحق معه وله ، إلَّا أنَّه يتسامح مع مَن ظلمه مع قدرته على إنزال العقوبة به . تلك حقًّا نفس كريم الخلق والروح .

ولد وضع ابن تيمية قاعدة عظيمة للتسامح في حياته السلوكية والعملية ، **هذه القاعدة هي مقولته المشهورة** : « أحللت كل مسلم عن إيذائه لي » ، والتي ظل يرددها عند كل موقف ظلم فيها وتعدي عليه من قبل خصومه ، وحين يطلب منه الرد عليهم بالمثل ، يجيب أنصاره بتلك المقولة السابقة !

لقد كان لسان حال شيخ الإسلام مع أعدائه : إنَّني لا أنقم عليكم شيئا من حظوظ الدنيا ، ولا أنافسكم على شيء من حطامها ، ولا أكرهكم لذواتكم ، ولا أريد الانتقام منكم ، بل أريد أن يعلو الحق وتظهر الحقيقة ، كما أحب الخير لكم ولكل مسلم ، وأحب أن تكونوا دائمًا سعداء وتنعمون بالبهجة والرضا ، وكل شر يصلني منكم سأرده بخير ، وكل شتيمة من قبلكم ستجدون في مقابلها دعاء لكم بكل خير .



وهكذا كانت سيرته الراسخة في التعامل العادل مع خصومه ، ومهما اشتد عليه الأذى والتضييق من خصومه ، نجده يبادلهم بالعفو والتسامح والغفران ، بنفس مؤمنة ، وبقلب طاهر .

ولأنَّ ابن تيمية رجل يقول الخير ويفعله ، ويؤسس التسامح ويمارسه ، لذلك وجدنا حياته صورة صادقة وتعبيرًا دقيقًا لهذا الروح ، إنَّها التربية العملية التي يسعى صاحبها لممارسة النظريات الأخلاقية التي يؤمن بها .

وإليك ـ أخي القارئ ـ بعض الأمثلة العملية لعدل ورحمة وتسامح ابن تيمية مع خصومه :



المبحث الأول

موقف ابن تيمية من خصمه البكري الصوفي

كانت من أشد المحن التي مرت بابن تيميه ـ رحمه الله ـ محنته مع غلاة الصوفية عام ٧٠٧هـ . ففي مصر حينما خرج من سجنها ظل فيها يدرس تلاميذه ، ويعظ الناس ، ويرسخ عقائد السلف في نفوس الناس ، وينقد الخرافات والخزعبلات التي كانت منتشرة هناك . هذا النشاط التثقيفي والتنويري الذي كان ابن تيمية يقوم به لم يعجب ذلك شيوخ الصوفية الغلاة ، أمثال : نصر المنبجي ، وابن عطاء الله السكندري ، وعلى بن يعقوب البكري . فجمعوا أتباعهم من المتصوفة والعوام وساروا إلى السلطان ليستعينوا به على ابن تيمية ، من أجل إيداعه السجن ، وفعلا نجحوا في ذلك !

إلا أنَّ ابن تيمية لم تهن عزيمته ، بل واصل في الحبس دروسه ، وأخذ الناس يقصدونه ويزورونه للتفقه في أمور دينهم والاستفتاء ، وهكذا أكبَّ الناس عليه من كل حدب وصوب ، فساء ذلك غلاة الصوفية وغيرهم ، فأخرجه الجاشنكير ـ حاكم مصر آنذاك ، وهو كان التلميذ المطيع لشيخه الصوفي المنبجي ـ من القاهرة إلى الإسكندرية كالمنفي سنة ٧٠٩هـ ، ومنعوا أن يجتمع عنده أحد .

وكان ابن تيمية في كل ما يصيبه من هؤلاء صابرًا محتسبًا أجره عند الله ، يقابل الإساءة بالإحسان ، والظلم بالعفو والمغفرة ، وفي مقابل ذلك أن



يظهر الحق ويجيب السائل بكل أمانة وموضوعية ، ويعدل في القول وينصف الخصم .

وقد أَلَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا بعنوان « الاستغاثة » ، وهو رسالة علمية بالأدلة الشرعية في حكم الاستغاثة بغير الله ، وهو ردٌّ على رسالة كتبها الشيخ الصوفي على البكري .

وبدل أن يقابل البكري رد ابن تيمية بالحجة والبرهان ، بادر إلى الحكم عليه بالكفر والردة والخروج عن ملة الإسلام [1] !

ولم يكتفِ الشيخ الصوفي البكري - عفا الله عنا وعنه - بمجرد التكفير ، بل بالغ في إيذاء ابن تيمية بالقول والعمل ، حيث كتب إلى السلطان يستعديه على ابن تيمية ، ويحثه على قتله !

بل قام باستعداء العوام على الشيخ ، وحرض الجند وأصحاب الدولة على شيخ الإسلام ، وشهر به ، وأقذع الشتيمة في حقه وأهدر دمه .

وكان الشيخ الصوفي البكري من أشد الصوفية على شيخ الإسلام ابن تيمية ، ففي محنة الشيخ مع الصوفية سنة ٧٠٧هـ حول قضية «الاستغاثة» طالب بعضهم بتعزير شيخ الإسلام ، إلا أنَّ الشيخ البكري طالب بقتله وسفك دمه [2] !

---

(١) انظر : « كتاب الاستغاثة » - لابن تيمية ، تحقيق : عبد الله السهلي : (٢ / ٥٩٦) دار الوطن ، الرياض .

(٢) انظر : « الدرر الكامنة » : (١ / ١٥٥) ، و « نزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى » - للعلامة الكشميري ، نقلًا عن « الجامع لسيرة شيخ الإسلام » ، ص : (٦٧٨ - ٦٧٩) .



وفي سنة ٧١١هـ تجمهر بعض العوام من الصوفية ومعهم الشيخ على البكري ، وتبعوا شيخ الإسلام ابن تيمية حتى تفردوا به وضربوه ، وفي حادثة أخرى تفرد البكري بابن تيمية ووثب عليه وتش أطواقه وطيلسانه ، وبالغ في إيذاء ابن تيمية والاعتداء عليه ، ولم يزد ابن تيمية إلَّا أن قال : حسبنا الله ونعم الوكيل (١) !

في المقابل تجمع الناس وشاهدوا ما حصل لشيخ الإسلام من أذية وتعدي ، فطلبوا الانتقام من الشيخ البكري ، فهرب ، وطلب أيضًا من جهة الدولة فهرب واختفى ، وثار بسبب ما فعله فتنة ، وحضر جماعة كثيرة من الجند والفرسان وتتابع الناس تجمعًا وتجمهرًا على شيخ الإسلام ابن تيمية لأجل الانتصار له والانتقام من خصمه الذي كفره واعتدى عليه .

وقالوا : يا سيدي قد جاء خلق من الحسينية لو أمرتهم أن يهدموا مصر كلها لفعلوا ! فقال لهم : لأي شيء ؟ فقالوا : لأجلك ! فقال لهم : هذا ما يحق . فقالوا : نحن نذهب إلى بيوت هؤلاء الذين آذوك فنقتلهم ونخرب دورهم ، فإنهم شوشوا على الخلق وأثاروا هذه الفتنة على الناس . فقال لهم : هذا ما يحل . قالوا : فهذا الذي قد فعلوه معك يحل ؟ هذا شيء

(١) انظر : « العقود الدرية » ، ص : (٣٠٥) ، ونزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى - للعلامة الكشميري ، نقلًا عن « الجامع لسيرة شيخ الإسلام » ، ص : (٦٧٨ - ٦٧٩) ، و« المقفى الكبير » - للعلامة المقريزي ، نقلًا عن « الجامع لسيرة شيخ الإسلام » ، ص : (٥٠٩) ، و« الذيل على طبقات الحنابلة » - للعلامة ابن رجب الحنبلي ، نقلًا عن « الجامع لسيرة شيخ الإسلام » ، ص : (٤٧٨ - ٤٧٩) .



لا نصبر عليه ، ولا بد أن نروح إليهم ونقاتلهم على ما فعلوا .

وظل ابن تيمية ينهاهم ويزجرهم ، ويقول لهم : (أنا ما أنتصر لنفسي)! فحينها ماج الناس والجند والفرسان وأكثروا عليه وألحوا في طلب الانتقام والمطالبة بنصرته ، وأن يشير عليهم بما يراه مناسبا للرد على خصمه ، **فقال لهم مشددًا عليهم** : إما أنَّ الحق لي ، أو لكم ، أو لله فإن كان الحق لي فهم في حل وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني ، فلا تستفتوني وافعلوا ما شئتم وإن كان الحق لله ، فالله يأخذ حقه كما يشاء ومتى يشاء .

فقالوا : فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم ؟

فرد عليهم ابن تيمية ، وقال : هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه !

فقالوا : فتكون أنت على الباطل وهم على الحق ، فإذا كنت تقول : «إنَّهم مأجورين» ، فاسمع منهم ووافقهم على قولهم ! فقال لهم : ما الأمر كما تزعمون ، فإنَّهم قد يكونون مجتهدين مخطئين ، ففعلوا ذلك باجتهادهم والمجتهد المخطئ له أجر .

فبلغ هذا الكلام كثيرا من خصومه ، فتعجبوا وقالوا : « والله لقد كنا متجنين في حق هذا الرجل لقيامنا عليه ، والله إن الذي يقوله هذا هو الحق »[(١)].

ولما اشتد طلب الدولة للشيخ البكري ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت هرب ، واختفى عن أنظار الناس والدولة ، ولكن العجيب أنه لم

---

(١) انظر : « العقود الدرية » : (٣٠١-٣٠٥) .

يجد له مكانا آمنا إلا بيت ابن تيمية نفسه ، حيث هرب واختفى عنده لما كان مقيمًا في مصر ، حتى شفع فيه ابن تيمية عند السلطان وعفا عنه [١] !

قال ابن تيمية مبينًا أنَّ هذا الأمر منهجه العملي وخطابه الفكري تجاه مخالفيه :

« لم نقابل جهله - أي البكري الصوفي - وافتراءه بالتكفير بمثله ، كما لو شهد شخص بالزور على شخص أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه ، لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ولا أن يقذفه بالفاحشة » [٢].

وقال أيضًا مبينًا تسامحه مع أعدائه : « هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني ، فإنَّه وإن تعدى حدود الله في بتكفير ، أو تفسيق ، أو افتراء ، أو عصبية جاهلية ، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ما أقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل ، وأجعله مؤتما بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس حاكما فيما يختلفون فيه » [٣].

ثم يُبيِّنُ ابن تيمية أن هذا ليس موقفه الشخصي فحسب ، بل هذا منهج السلف الصالح ، والذي دأب ابن تيمية على ملازمته ، قال - رحمه الله - :

« فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم ، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم ؛ لأنَّ الكفر حكم شرعي ، فليس للإنسان أن يعاقب

---

(١) انظر : « البداية والنهاية » : (١٤ / ٨٠ ، ١٣١) ، ونزل من اتقى بكشف أحوال المنتقى - للعلامة للكشميري ، نقلًا عن « الجامع لسيرة شيخ الإسلام » ، ص : (٦٧٨ - ٦٧٩) .

(٢) « تلخيص كتاب الاستغاثة » : (٢ / ٤٩٤) .

(٣) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٤٥) .



بمثله ، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله ؛ لأنَّ الكذب والزنا حرام لحق الله ـ تعالى ـ ، وكذلك التكفير حق لله ، فلا يكفر إلَّا من كفَّره الله ورسوله »[1].

أقول : انظر أيُّها القارئ إلى عظيم تسامح هذا الإنسان الكبير ، فالبكري ومن معه من الصوفية قابلوه بالظلم والتكفير والاعتداء والعدوان والبهتان ، وابن تيمية قابلهم بالعفو والإحسان والكرم ، إن في ذلك لآية عظيمة لكل منصف.

(١) « تلخيص كتاب الاستغاثة » : (٢ / ٤٩٢) .



المبحث الثاني
موقف ابن تيمية من خصومه الذين تسببوا في سجنه وطالبوا بقتله

لم يكن امتحان الصوفية هو الامتحان الوحيد الذي ابتلي به ابن تيمية، بل ابتلي - رحمه الله - بقرناء حسدوه على محبة الناس والخلق له ، وعلى ما مَنَّ الله به عليه من علم ودين وخلق ، وما ناله من مكانه عظيمة في قلوب الجميع ، لقد كان شيخ الإسلام - رحمه الله - من أكثر العلماء الجهابذة الذين تعرضوا لأذى الأقران الحساد ، ولكنه كان مع كل ذلك صابرًا محتسبًا ، وكان معهم من ألطف الناس وأرحمهم .

يقول الحافظ البزار حاكيًا حال خصومه : « ولما رأوا هذا الإمام عالم الآخرة ، تاركا لما هم عليه من تحصيل الحطام ، من الشبه الحرام ، رافضًا الفضل المباح فضلًا عن الحرام ، تحققوا أن أحواله تفضح أحوالهم وتوضح خفي أفعالهم ، وأخذتهم الغيرة النفسانية ، على صفاتهم الشيطانية، المباينة لصفاته الروحانية ، فحرصوا على الفتك به أين ما وجدوه »[1] .

ولذا فقد اجتمع هؤلاء عليه وهم أشتات كثيرة ، وأطياف منوعة ، يجمعهم هدف واحد وهو إسقاط ابن تيمية والنيل منه ، حاولوا محاورته فأسقط في أيديهم ، راموا مجاراته في العلم والفقه والمعرفة فرجعوا خائبين ،

---

(١) « الأعلام العية في مناقب ابن تيمية » ، ص : (٤٢ - ٤٣) .



ناظروه وجادلوه فبين لهم المحجة وألزمهم الحجة ، فاستعانوا عليه بالسلطان ، فكتبوا التقارير الكاذبة والشكاوي الكيدية ، محاولين نكبته عند ولي الأمر بعد أن يئسوا من الظهور عليه بالحجة والبرهان ، وما أشبه الليلة بالبارحة !

يقول ابن فضل الله والبرهان : «فلقد اجتمع عليه عصب الفقهاء والقضاة بمصر والشام ، وحشدوا عليه خيلهم ورجلهم ، فقطع الجميع ، وألزمهم الحجج الواضحات أي إلزام، فلما أفلسوا أخذوه بالجاه والحكام» [(١)].

وفي عام ٧٠٩ بعد أن وشى به بعض هؤلاء وكذبوا عليه وألبوا الحكام والأمراء عليه ، وتزلفوا لدى الكبراء في أمر ابن تيمية ، سجن وعذب ، هو وأصحابه ، وتولى كبر ذلك الجرم شيخ غلاة الصوفية في زمنه الشيخ نصر المنبجي والأمير ركن الدين (ببيرس الجاشنكير) تلميذ المنبجي ، وجماعة من الفقهاء والعلماء على رأسهم القاضي المالكي ابن مخلوف ، وهؤلاء هم من ناصر الحاكم ببيرس في انقلابه ضد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . قال ابن عبد الهادي حاكيًا ما فعله خصوم ابن تيمية : « وأوذي جماعة من أصحابه ، واختفى آخرون ، وعزر جماعة ، ونودي عليهم » [(٢)].

وقال الإمام الذهبي عن أحد أصحاب ابن تيمية وهو المحدث جمال الدين الإسكندري : « أوذي من أجل ابن تيمية وقطع رزقه ، وبالغوا في

---

(١) « الرد الوافر » ، ص : (١٤٩) .
(٢) « العقود الدرية » ، ص : (٣٤٦) .



التحرير عليه »[1].

هذا ما جادت به أنفس خصوم ابن تيمية من الأخلاق ، فبعد أن عذبوا وسجنوا تلاميذه وأصحابه ، ساقوه لمحاكمة ظالمة جائرة ، قضاتها هم الأعداء والوشاة ، فالمدعي هو القاضي والمتهم هو الحاكم ، وفي هذا الجو المتلبد بالجور لم يمكن ابن تيمية من الدفاع عن نفسه ، فأمر القاضي ابن مخلوف بحبس ابن تيمية في القلعة ، ومعه أخواه .

ولما رأى شرف الدين ـ أخو ابن تيمية وكان معه في السجن ـ الظلم الكبير الذي وقع عليهم من قبل هؤلاء ، ابتهل ودعا الله عليهم ، فمنعه ابن تيمية ، وقال له : بل قل : « اللهم هب لهم نورا يهتدون به »[2].

ولم يكن ظلم شيخ الإسلام ابن تيمية وسجنه ليوهن أصحابه وتلاميذه ، بل كان سببًا في زيادة التفاف أصحابه حوله ، ومناصرتهم له ، بل وجعل كثيرًا من الناس يتعاطفون معه ، فزاره في سجنه الأمراء والعلماء والجند والفرسان والأصحاب ومن عامة الخلق ، مما زاد غيظ القاضي ابن مخلوف وحنقه وحسده لابن تيمية ، فكتب إلى السلطة ما يلي : « يجب التضييق عليه إن لم يقتل ، وإلا فقد ثبت كفره »[3].

وطلب المدعي ابن عدلان قتل ابن تيمية وذلك بتعزيره التعزيز البليغ

---

(١) « الرد الوافر » ، ص : (١٨٤) .

(٢) انظر : « المنهج الأحمد في ذكر أصحاب الإمام أحمد » ـ العلامة مجير الدين العليمي ، نقلًا عن «الجامع»، ص : (٦٠٦) ، « النيل على طبقات الحنابلة » ـ العلامة ابن رجب الحنبلي ، نقلًا عن «الجامع » ، ص : (٤٧٤) .

(٣) انظر : « الدرر الكامنة » : (١ / ١٨٤) ، و « العقود الدرية » ، ص : (٢٦) ، و « البدر الطالع » ، نقلًا عن « الجامع » ، ص : (٦٥٢) .



على مذهب المالكية [1].

قال الإمام الحافظ ابن سيد الناس حاكيا فعل خصوم ابن تيمية : «وصلوا بالأمراء أمره ، وأعمل كل منهم في كفره فكره ، فرتبوا محاضر، وألبوا الرويبضة للسعي بها بين الأكابر ، وسعوا في نقله إلى حاضرة المملكة بالديار المصرية فنقل ، وأودع السجن ساعة حضوره واعتقل ، وعقدوا لإراقة دمه مجالس ، وحشدوا لذلك قومًا من عمار الزوايا وسكان المدارس ، من مجامل في المنازعة ، مخاتل بالمخادعة ، ومن مجاهر بالتكفير مبارز بالمقاطعة يسومونه ريب المنون » [2].

قال الإمام الذهبي : « فجرت بينه وبينهم حملات حربية ، ووقعات شامية ومصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله ـ تعالى ـ، فإنَّه دائم الابتهال ، كثير الاستعانة ، قوي التوكل ، ثابت الجأش ، له أوراد وأذكار يدمنها » [3].

ولما رأي ابن تيمية أن الأمور متجهة إلى الفتنة ، وأن خصومه يصنعون الأحداث صنعا لجر المجتمع الإسلامي للاحتراب الداخلي ، والتخاصم بين أصحابه وأنصاره وبين خصومه وأعدائه ، قرر أن يضحي بشخصه ، وأن يدفع الأمور إلى التهدئة ، وأن يقدم المصلحة العامة وهي اجتماع المسلمين ، على المصلحة الخاصة وهي دفع الظلم الواقع عليه .

---

(١) انظر : نزل من اتقى بكشف أحوال المتقى ، نقلًا عن الجامع ، ص : (٦٧٥) ، و «الذيل على طبقات الحنابلة» ، نقلًا عن « الجامع » ، ص : (٤٧٤) .

(٢) « الرد الوافر » ، ص : (٦٠) .

(٣) « الرد الوافر » ، ص : (٧١) .

يقول ابن تيمية : « وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها ، وإقامة كل خير ، وابن مخلوف لو عمل مهما عمل ، والله ما أقدر على خير إلَّا وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوه قط ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه نيتي وعزمي ، مع علمي بجميع الأمور ، فإنِّي أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين ولن أكون عونا للشيطان على إخواني المسلمين »[1].

وقام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بجهد عظيم لإخماد الفتنة التي قامت بين المسلمين ، وقام بإرسال رسالة إلى أصحابه وتلاميذه يحثهم فيها على وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم ، وذكر أصحابه وإخوانه بتنازله عن حقه الشخصي ، وأنه قد سامح وعفا عن كل من ظلمه أو كذب عليه ، وحذرهم من أن يتعرض أي مسلم لأي أذى بسببه ، لا لخصومة ولا لمن خذله من أصحابه ، وقدم اعتذارات لأكثرهم محسنا فيهم ظنه .

قال ابن تيمية : « ما يتعلق بي فتعلمون ـ رضي الله عنكم ـ أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين فضلًا عن أصحابنا بشيء أصلًا لا باطنا، ولا ظاهرًا ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلًا ، بل هُم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان كل بحسبه ولا يخلو لرجل إما أن يكون مجتهدا مصيبًا أو مخطئًا أو مذنبًا ، فالأول : مأجور مشكور ، والثاني : مع أجره على الاجتهاد فمعفو عنه

---

(١) «مجموع الفتاوى» : (٣/ ٢٧١) .



مغفور له ، والثالث : فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين »[1].

وقال لهم أيضًا : « فَلَا أُحِبُّ أَنْ يُنْتَصَرَ مِنْ أَحَدٍ بِسَبَبِ كَذِبِهِ عَلَيَّ ، أَوْ ظُلْمِهِ وَعُدْوَانِهِ ، فَإِنِّي قَدْ أَحْلَلْتُ كُلَّ مُسْلِمٍ ، وَأَنَا أُحِبُّ الْخَيْرَ لِكُلِّ الْمُسْلِمِينَ ، وَأُرِيدُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ الْخَيْرِ مَا أُحِبُّهُ لِنَفْسِي ، وَالَّذِينَ كَذَبُوا وَظَلَمُوا ؛ فَهُمْ فِي حِلٍّ مِنْ جِهَتِي ، وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ اللهِ ، فَإِنْ تَابُوا تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِلَّا فَحُكْمُ اللهِ نَافِذٌ فِيهِمْ ، فَلَوْ كَانَ الرَّجُلُ مَشْكُورًا عَلَى سُوءِ عَمَلِهِ لَكُنْتُ أَشْكُرُ كُلَّ مَنْ كَانَ سَبَبًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ لَكِنَّ اللهَ هُوَ الْمَشْكُورُ عَلَى حُسْنِ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ وَأَيَادِيهِ الَّتِي لَا يُقْضَى لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءٌ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ . . . وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ هَذَا مِنْ خُلُقِي »[2].

فأي نفس صافية هذه التي كان يتحلى بها ابن تيمية ؟ ومن يطيق أن يفعل مثل ذلك ؟

وكان مشيئة الله نافذة للانتصار لعبادة المخلصين ، فقد شاء الله أن تزول إمارة بيبرس الجاشنكير ويقتل ، ويتحمل شيخه الصوفي نصر المنبجي ويموت في زاويته ، ويقع عقاب السلطان الناصر محمد بن قلاوون على كثير من العلماء الذين ناصروا إمارة الجاشنكير ، والذين كان أكثرهم من خصوم ابن تيمية ، ويضم السلطان ابن قلاوون دمشق ومصر إلى حكمه ، ولم يكن هم السلطان ابن قلاوون إلَّا الإفراج عن شيخ الإسلام

(١) « مجموع الفتاوى » (٢٨ / ٥٢) .
(٢) « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٥٥-٥٦) .



المسجون ظلمًا وزورًا .

فأخرجه السلطان ابن قلاوون معززًا مكرمًا مبجلًا ، ووصل الشيخ إلى البلاط السلطاني ، فقام له السلطان تكريمًا واحترامًا ووضع يده بيد ابن تيمية ، ودخلا على كبار علماء مصر والشام ، وفيهم خصوم ومخالفي ابن تيمية ، وأعداء السلطان أيضًا !

وقد كان السلطان ابن قلاوون حانقًا على الفقهاء والقضاة الذين كانوا يوالون بيبرس الجاشنكير ، فأراد أن يقضي عليهم انتقامًا منهم ، ووجد أنَّهم أنفسهم هم من أفتى بحبس شيخ الإسلام ابن تيمية وكفره وأباح قتله ، فأراد أن يستغل السلطان هذه الفرصة المشتركة بينه وبين ابن تيمية ، فيستخرج منه فتوى بجواز قتل هؤلاء القضاة والفقهاء الذين كانوا أعداء للطرفين ، للسلطان ولابن تيمية .

فاختلى السلطان الناصر ابن قلاوون بشيخ الإسلام ابن تيمية ، وحدثه عن رغبته في قتل بعض العلماء ، والقضاة بسبب مناصرتهم لعدوه الجاشنكير ودورهم في الانقلاب ضده ، وبسبب ما أخرجه بعضهم من فتاوى بعزل السلطان الناصر ابن قلاوون ومبايعة بيبرس الجاشنكير . وأخذ السلطان يحث ويشجع ابن تيمية على إصدار فتوى بجواز قتل هؤلاء العلماء ، ويذكره بأن هؤلاء العلماء هم الذين سجنوه وظلموه واضطهدوه ، بل وكفروه وأهدروا دمه ، وأنَّها حانت ساعة الانتقام منهم ، ومعاملتهم بالمثل ، والبادئ أظلم .



وأصر السلطان الناصر ابن قلاوون على طلبه ، وأخذ يذكر ابن تيمية بما اقترفوه في حقه ، مستميلًا نفسه وعواطفه الإنسانية الطبيعية كي يخرج فتاوى في جواز قتلهم !

ولعلك ـ أخي القارئ ـ تتساءل عن طبيعة رد فعل ابن تيمية ، وهل وجدها فرصة للتنفيس عن خصومته لهم ، ومتنفسا للانتقام من الأعداء ؟

كلا ، فنفس هذا العالم الكبيرة أرفع وأطهر من ذلك ، فلقد قام ابن تيمية بتعظيم هؤلاء العلماء والقضاة ، وأنكر أن ينال أحد منهم بسوء ، وأخذ يمدحهم ويثني عليهم أمام السلطان ، وشفع لهم بنفسه ، وطلب من السلطان أن يعفو ويصفح عنهم ، ومنعه من قتلهم .

وقال للسلطان : « إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم من العلماء الأفاضل » .

فرد عليه السلطان متعجبًا متحيرًا : « لكنهم آذوك وأرادو قتلك مرارا»!

فقال ابن تيمية : « من آذاني فهو في حل ، وأنا لا أنتصر لنفسي » .

وما زال ابن تيمية بالسلطان يقنعه أن يعفو ويصفح عنهم ، حتى استجاب له السلطان فأصدر عفوه عنهم وخلى سبيلهم .

عندها أقبل جمع الفقهاء يعتذرون ويتأسفون لابن تيمية مما وقع منهم في حقه ، وابن تيمية يقبل اعتذارهم ، **ويقول لهم :** قد جعلت الكل في حل!



إنَّها النفوس الكبيرة التي تستطيع أن تتجاوز حظوظها النفسية، ومواقفها الشخصية، وتتجرد عن شهواتها الذاتية، وتترفع عن خصوماتها، وتنظر لما هو أهم وأعظم، وهو ظهور الحق، وبلوغ الدعوة، وسلامة الناس، ووحدة كلمة الأمة، فتمارس العظمة بكل معانيها، وهكذا كان ابن تيمية ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

ولقد شهد له أكبر خصومه وهو قاضي المالكية القاضي ابن مخلوف، وهو الذي هاجمه وآذاه، بل كفره واستحل دمه، فشهد له بعمله الفريد الذي عمله معه ومع أمثاله أثناء غضب السلطان الناصر ابن قلاوون عليهم، **فقال عن ابن تيمية لـمَّا سعى للإفراج عنهم:**

« ما رأيت كريمًا واسع الصدر مثل ابن تيمية، فقد آثرنا الدولة ضده، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا »[(١)].

قال الحافظ ابن كثير: « وسمعت الشيخ تقي الدين - ابن تيمية - يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لـمَّا انفردا في ذلك الشباك الذي جلسا فيه، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة بسبب ما كانوا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم في عزله من الملك ومبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك وآذوك أيضًا، وأخذ يحثه بذلك على أن يفتيه في قتل

(١) انظر: « المنهج الأحمد » - العلامة العليمي: نقلًا عن « الجامع »، ص: (٦٠٦)، «الذيل على طبقات الحنابلة»، نقلًا عن « الجامع »، ص: (٤٧٨).



بعضهم ، وإنَّما كان حنقه عليهم بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله ومبايعة الجاشنكير ، ففهم الشيخ مراد السلطان فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء ، وينكر أن ينال أحدًا منهم بسوء.

وقال له : إنَّهم قد آذوك هؤلاء تجد بعدهم مثلهم .

فقال له : إنَّهم قد أذوك وأرداوا قتلك مرارًا .

فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي .

وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

قال : وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا » [1].

وقال الإمام ابن عبد الهادي : « وسمعت الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يذكر أن السلطان لـمَّا جلسا بالشباك أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله واستفتاه في قتل بعضهم .

قال : ففهمت مقصوده وأن عنده حنقا شديدًا عليهم لـمَّا خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم ، وأن هؤلاء لو ذهبوا لـم تجد مثلهم في دولتك ، أما أنا فهم في حل من حقي ومن جهتي ، وسكنت ما عنده عليهم .

قال : فكان القاضي زين الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد

---

(١) « البداية و النهاية » : (١٤ / ٦١) .

ذلك : ما رأينا أتقى من ابن تيمية لـم نبق ممكنا في السعي فيه ، ولـمَّا قدر علينا عفا عنا »[1].

وقال ابن كثير : « وجاء الفقهاء يعتذرون مما وقع منهم في حقه ـ أي ابن تيمية ـ فقال: قد جعلت الكل في حل »[2].

فانظر ـ أخي القارئ ـ بعين الإنصاف لفعل هذا الرجل الذي ظلمه هؤلاء وسجنوه وكفروه بل وأهدروا دمه ، فلما ظهر عليهم ، وتمكن منهم ومن رقابهم ، وكانت رغبة السلطان الشخصية في قتلهم ، ولو سكت لربما قتلوا ، ولكنه دافع عنهم وحاجج عنهم ، وجادل السلطان في شأنهم ، حتى أقنعه بذلك فعفا عنهم وخلى سبيلهم !

فهل في الدنيا أعظم وأكبر من تلك الشهادة على تسامحه وعدله ورحمته بالمخالفين ؟

---

(١) « العقود الدرية » ، ص : (٢٩٨ ـ ٢٩٩) .

(٢) « البداية والنهاية » : (١٤ / ٦١) .



المبحث الثالث
موقف ابن تيمية من بعض خصومه لما بلغه وفاتهم

الإنسان في الغالب يفرح إذا سمع بموت أحد خصومه ، وأحيانا يتشفى بذلك ، ويشرع بذكر مساوئ خصمه ، ويطلق لسانه فيه شتمًا وسبًا ؛ لأنَّ الميت لا حول له ولا قوة ، فقد انتقل إلى ربه ، وهو رهينة عمله ، فلا لسان له لينطق ، ولا يد له فيدفع عن نفسه ، فالنيل منه سهل ميسور للنفوس الضعيفة.

لكن ابن تيمية في مواقفه يختلف عن هؤلاء ، فلقد بلغه يومًا وفاة أشد خصومه عداوة له وهجوما عليه ، حيث كان يكفره ويستحل دمه ، بلغه ذلك عن طريق أحد أصحابه كبشارة له ! فماذا كان موقف شيخ الإسلام من تلك البشارة ؟ تأمل أخي القارئ كلام تلميذه ابن القيم حينما عقد فصلا بعنوان (منزلة الفتوة) وتحدث فيه عن تلك المنزلة ، وأن حقيقتها الإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم واحتمال أذاهم ، فهي منزلة استعمال الأخلاق الكريمة مع جميع الناس صديقهم وعدوهم ، ثم تحدث عن درجاتها، إلى أنَّ قال : « الدرجة الثانية : أن تقرب من يقصيلك ، وتكرم من يؤذيك ، وتعتذر إلى من يجني عليك ، سماحة لا كظما ، ومودة لا مصابرة ، هذه الدرجة أعلى مما قبلها وأصعب فإن الأولى تتضمن ترك المقابلة والتغافل ، وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك ، ومعاملته



بضد ما عاملك به ، فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطتين ، فخطتك الإحسان وخطته الإساءة ، وفي مثلها قال القائل :

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم		وتذنبون فنأتيك ونعتذر

ومَن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي ؛ فلينظر إلى سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الناس يجدها هذه بعينها ، ولم يكن كما هذه الدرجة لأحد سواه ، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة .

وما رأيت أحدًا قط أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ ، وكان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه . وما رأيته يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم ، وجئت يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه وأشدهم عداوة وأذى لهم ، فنهرني وتنكر لي و استرجع ، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم ، وقال: إنِّي لكم مكانه ، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه ، ونحو هذا من الكلام ، فسروا به ودعوا له وعظموا هذه الحال منه ، فرحمه الله ورضي عنه »[1].

---

(١) « مدارج السالكين » ـ تحقيق : محمد حامد الفقي : (٢ / ٣٤٠) الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٣٩٣هـ .



المبحث الرابع
روح الرحمة والتسامح
عند ابن تيمية تجاه الجميع

لقد أنعم الله على شيخ الإسلام بنفس كبيرة وقلب سالم من الأحقاد قل أن يوجد مثله عن غيره من علماء زمانه ، فما كان يحمل في قلبه غلًّا ولا حسدًا ولا حقدًا على أحد ، بل ولا على خصومه ، بل كان سائرًا على منهج السلف في الرحمة والعدل بالمخالفين .

قال ابن تيمية : « فأهل السنة يستعملون معهم - أي المخالفين - العدل والإنصاف ، ولا يظلمونهم ، فإن الظلم حرام مطلقًا »[1].

وقال ابن القيم عن ابن تيمية : « كان بعض أصحابه الأكابر يقول : وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه . وما رأيته يدعو على أحد منهم قط ، وكان يدعو لهم »[2].

ولـمَّا وقف منه القاضي ابن مخلوف موقف العداء ورماه بكل قوس في جعبته ، وأثار عليه العوام والحكام وأصدر ضده الأحكام والفتاوى التي أثارت الفتنة بين الناس واجتهد غاية الاجتهاد في قتله ، وابن تيمية صابر محتسب يقابل السيئة بالحسنة ، ولم يحمل في نفسه حقدًا ولا بغضًا لهذا الرجل .

---

(١) « منهاج السنة النبوية » : (٥ / ١٥٧-١٥٨) .
(٢) « مدارج السالكين » : (٢ / ٣٤٠) .



يقول ابن تيميه معبرًا عن نفسيته المتسامحة : « وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلَّا وأعمله معه ، ولا أعين عليه عدوه قط ، ولا حول ولا قوة إلا بالله هذه نيتي وعزمي » [1].

وقال في رسالة كتبها وهو في السجن إلى تلاميذه ومحبيه ، يتحدث عن خصومه الذين تسببوا في دخوله السجن ، وكانوا سببًا في مصادرة كتبه :

« أنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم ، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات » [2].

وقال معبرًا عن روحه الطيبة المحبة لجميع المسلمين : وأنا أحب الخير لكل المسلمين وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي » [3].

بل إنَّ روحه الطيبة العادلة المتسامحة شملت حب الخير للإنسانية جمعاء ، فقد قال في رسالة وجهها للملك النصراني (سرجون) حاكم قبرص : « نحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة » [4].

وكان سبب هذه الرسالة التي بعث بها إلى ملك قبرص وجود أسرى من عامة المسلمين بأيدى النصارى ، فأرسل له ابن تيمية طالبًا منه أن يفك

---

(١) « مجموع الفتاوى » : (٣ / ٢٧١) .

(٢) « مجموع الفتاوى » : (٢٧ / ٤١) .

(٣) « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٥٥) .

(٤) « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٦١٥) .



أسرى المسلمين جميعًا ، وأن يحسن إليهم ، مذكرًا ملك قبرص بما فعله ابن تيمية شخصيًّا حينما جادل ملك التتار ليفك أسر المأسورين من النصارى وأهل الكتاب رحمة بهم ، وإحسانًا إليهم كما أمر الإسلام ، وهذا الموقف كان ابتداء من ابن تيمية ، ولم يكن خاصًّا لأجل المساومة والمعارضة ، فلم يذكره إلَّا بعد أن احتاج إليه لينفع المسلمين .

قال ابن تيمية : « وَقَدْ عَرَفَ النَّصَارَى كُلُّهُمْ أَنِّي لَـمَّا خَاطَبْتُ التَّتَارَ فِي إطْلَاقِ الْأَسْرَى ، وَأَطْلَقَهُمْ غازان وقطلو شاه وَخَاطَبْتُ مَوْلَايَ فِيهِمْ ، فَسَمَحَ بِإِطْلَاقِ الْـمُسْلِمِينَ . قَالَ لِي : لَكِنَّ مَعَنَا نَصَارَى أَخَذْنَاهُمْ مِنَ الْقُدْسِ، فَهَؤُلَاءِ لَا يُطْلِقُونَ . فَقُلْتُ لَهُ : بَلْ جَمِيعُ مَنْ مَعَك مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ ذِمَّتِنَا ؛ فَإِنَّا نُفْتِكُهُمْ وَلَا نَدَعُ أَسِيرًا لا مِنْ أَهْلِ الْـمِلَّة ، وَلَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَأَطْلَقْنَا مِنْ النَّصَارَى مَنْ شَاءَ اللهُ ، فَهَذَا عَمَلُنَا وَإِحْسَانُنَا وَالْجَزَاءُ عَلَى الله »(١).

ثم بَيَّنَ للملك القرصي منهج المسلمين في التعامل مع غير المسلمين ، فقال: « الَّذِي بِأَيْدِينَا مِنَ النَّصَارَى يَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ إحْسَانَنَا وَرَحْمَتَنَا وَرَأْفَتَنَا بِهِمْ ؛ كَمَا أَوْصَانَا خَاتَمُ الْـمُرْسَلِينَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ »(٢).

ثم أبدى ابن تيمية تألمه وامتعاضه تجاه تعامل القبرصيين مع أسرى المسلمين ، فقال : « فَيَا أَيُّهَا الْـمَلِكُ ! كَيْفَ تَسْتَحِلُّ سَفْكَ الدِّمَاءِ وَسَبْيَ الْحَرِيمِ ، وَأَخْذَ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ مِنْ اللهِ وَرُسُلِهِ ، ثُمَّ أَمَا يَعْلَمُ الْـمَلِكُ أَنَّ

(١) « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٦١٧-٦١٨) .
(٢) « مجموع الفتاوى » : (٢٨ / ٦١٨) .



بِدِيَارِنَا مِنَ النَّصَارَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَالْأَمَانِ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ، وَمُعَامَلَتُنَا فِيهِمْ مَعْرُوفَةٌ، فَكَيْفَ يُعَامِلُونَ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْمُعَامَلَاتِ الَّتِي لَا يَرْضَى بِهَا ذُو مُرُوءَةٍ وَلَا ذُو دِينٍ »[1].

فانظر كيف كان ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حريصًا على المسلمين كلهم، رحيمًا ورفيقًا بهم، وامتدت رحمته وعدالته إلى غير المسلمين ؛ لأن منهجه العام محبة الخير للإنسانية جمعاء.

وفي آخر حياته ـ رحمه الله ـ لـمَّا تجدد عليه الظلم وسجن طلب من الجميع منهج الإنصاف والعدل مع كافة الناس، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وطالب حكام الإسلام وعلماء الدين بالعدل مع المخالفين مهما كانوا، رافضًا الظلم الذي وقع عليه أو على غيره، وأن يكون هذا منهجا ثابتا وراسخًا ؛ لأنَّه من منهج الإسلام.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: « فإنَّه في آخر شهر رمضان سنة ست وعشرين وسبعمائة، جاء أميران رسولان من عند الملاء المجتمعين من الأمراء والقضاة ومن معهم، وذكرا رسالة من عند الأمراء، مضمونها طلب الحضور، ومخاطبة القضاة لتخرج وتنفصل القضية، وأن المطلوب خروجك، و أن يكون الكلام مختصرًا، ونحو ذلك.

فقلت: سلم على الأمراء، وقل لهم: لكم سنة، وقبل السنة مدة أخرى تسمعون كلام الخصوم في الليل والنهار، وإلى الساعة لم تسمعوا

---

(١) « مجموع الفتاوى »: (٢٨ / ٦٢٢).



منى كلمة واحدة ، وهذا من أعظم الظلم ، فلو كان الخصم يهوديًا أو نصرانيًا أو عدوًا آخر للإسلام ولدولتكم ، لـمَّا جاز أن تحكموا عليه حتى تسمعوا كلامه ، وأنتم قد سمعتم كلام الخصوم وحدهم في مجالس كثيرة ، فاسمعوا كلامي وحدي في مجلس واحد ، وبعد ذلك نجتمع ونتخاطب بحضوركم ، فإن هذا من أقل العدل الذي أمر الله به في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[النساء: ٥٨])[١].

(١) « التسعينية » ، ابن تيمية ، تحقيق : د . محمد العجلان : (١ / ١١٠) ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع .



المبحث الخامس

حرصه على وحدة المسلمين ، وجمع كلمتهم

ومن الميز والخصائص المهمة في ابن تيمية تغليبه للمصلحة العامة المتمثلة في وحدة الصف الإسلامي ، وجمع الكلمة ، ورأب الصدع ، ونبذ الاختلاف ، وهذه الميزة مبثوثة في أقواله ومشهود لها من أفعاله وسيرته ، وكان ـ رحمه الله ـ حريصًا على تقارب المسلمين ، ليس بالعبارات الخاوية ، ولا بالمؤتمرات الشكلية ، بل يمنهج عملي أصيل ، كان له دور كبير في توحيد الصف الإسلامي في وجه المخاطر التي تحدق بهم[1] .

فقد أرسل ابن تيمية رسالة إلى إخوانه وأصحابه بدمشق ، يحثهم فيها على الوحدة الإسلامية ، ويدعوهم إلى اجتماع الكلمة ، وإصلاح ذات البين ، ومما قاله فيها :

« وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين تأليف القلوب واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[الأنفال: ١] ، ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾[آل عمران: ١٠٣] ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(١) أقول : مِمَّا يُؤسَفُ له أنَّه يُوجد في العالم الإسلامي طائفة دأبت منذ سنوات كثيرة على رفع شعارات الوحدة والتقارب بين المسلمين ، ونشطت بهذه الدعوة حال ضعفها ، وأخذت تُؤسس المكاتب الخاصة بذلك في بلاد أهل السنة والجماعة دون بلادهم (!!) ، وأخذت تدعو لمؤتمرات الوحدة ، وبعد سنوات أكتشف كثير من المنخدعين بتلك الدعوة ـ بعد غفلة طويلة ـ أنَّ المقصود بدعوى الوحدة والتقارب هو تحول أهل السنة من مذهبهم إلى مذهب آخر !



[آل عمران: ١٠٥] وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف وتنهى عن الفرقة والاختلاف ، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة » (١) .

وقال ابن تيمية مبينا تجربته الشخصية والعملية : « والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة ، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفا لقلوب المسلمين وطلبا لاتفاق كلمتهم واتباعًا لِـمَا أمرنا به من الاعتصام بحبل الله وأزلت عامة ما كان في النفوس من الوحشة ، وبينت لهم أن الأشعرى كان من أجل المتكلمين المنتسبين إلى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ونحوه المنتصرين لطريقه كما يذكر الأشعري ذلك في كتبه . . وفرح المسلمون باتفاق الكلمة ، وأظهرت ما ذكره ابن عساكر في مناقبه ، أنه لـم تزل الحنابلة والأشاعرة متفقين إلى زمن القشيرى ، فإنَّه لـمَّا جرت تلك الفتنة ببغداد تفرقت الكلمة » (٢) .

وبيَّن لأصحابه وتلاميذه منهجه الذي يسير عليه تجاه المسلمين ، والذي لا يحيد عنه ، هو تقديم مصلحة المسلمين ، وإحسان الظن بهم ، **حيث قال :** « وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شرفها ـ أي فتنة خصومه ـ ، وفي غيرها وإقامة كل خير » (٣) .

---

(١) « **مجموع الفتاوى** » : (٢٨ / ٥١) .

(٢) « **مجموع الفتاوى** » : (١ / ٤٨ ـ ٤٩) .

(٣) « **مجموع الفتاوى** » : (٣ / ٢٧١) . **أقول** : كانت خصلة ابن تيمية الفريدة هي رحمة الخلق ، والتجرد عن حظوظ النفس ، وهمه الأكبر هو جمع كلمة الأمة ، وكان كثير الاعتذار عن الفقهاء والعلماء ، يُحسِنُ الظَّنَّ بالمسلمين ، حتى ألف كتابه الفريد : « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » مُلتمسًا العذر للأئمة والفقهاء في الاختلاف ، ومُعَظِّمًا للعلم وأهله ، ومُحْتَرِمًا أهل الاجتهاد والفقه.



وفي اللحظات الأخيرة من حياته ـ رحمه الله ـ مرض أيامًا في محبسه الأخير في القلعة ، فعلم بمرضه أحد وجهاء الدولة وهو شمس الدين الوزير ، فجاءه يستأذنه في الدخول عليه لعيادته ، فأذن الشيخ له في ذلك ، فلما جلس عنده أخذ الوزير يعتذر له عن نفسه ، ويلتمس منه أن يحله مما عساه أن يكون قد وقع منه في حق الشيخ من تقصير أو غيره .

فأجابه ابن تيمية بقوله : إنِّي قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق .

وقال له أيضًا : إنِّي قد أحللت السلطان الناصر ابن قلاوون من حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلدا غيره معذورا ، ولم يفعله لحظ نفسه ، بل لما بلغه مما ظنه حقًّا من مبلغه ، والله يعلم أنه بخلافه . ثم قال : قد أحللت كل واحد مما كان بيني وبينه [1] .

ولم يبقَ ابن تيمية طويلًا بعد ذلك ، حيث وافته المنية وهو في السجن ، مظلومًا من قبل أعدائه ، وهو صابر محتسب أجره عند الله ، مات وليس في قلبه ذرة كراهية تجاه أي مسلم ، مات بعد أن سامح الجميع ، مات وهو راضٍ عن نفسه التي طالما تخلت عن حظوظها الذاتية في سبيل الأمة المسلمة .

---

(١) انظر : « **الأعلام العلية** » ، ص : (٧٤ ـ ٧٥) .

الفصل الخامس

موقف الشيعة من المخالفين كأنموذج

« من عيوب أهل البدع تكفيرهم بعضهم بعضا ، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون » .

[ابن تيمية : « منهاج السنة النبوية » : (٥/ ٢٥١)] .

تمهيد

مرَّ معك - أخي القارئ - في الفصلين السابقين موقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من مسألة التكفير، وموقفه النظري من المخالفين، ثم سيرته العملية وسلوكه التطبيقي لآرائه وأقواله النظرية. وقد تبيَّن لكل منصف مدى اعتدال أقوال ابن تيمية، وانضباطها بمنهج أهل السنة والجماعة، كما تبيَّن لنا عظمة روح التسامح والعدالة والرحمة التي كان يتحلى بها ابن تيمية تجاه المخالفين والخصوم.

وحتى تكتمل الصورة بشكل صحيح لا بُدَّ أن نعرض - أخي القارئ الكريم - نماذج ونصوص يسيرة وسريعة لموقف إحدى الفرق الإسلامية من المخالفين والخصوم، حتى نستطيع أن نرى المشهد كله، والصورة كلها، ويصدق ويتحقق قول الشاعر:

والضد يظهر حسنه الضد ... وبضدها تتباين الأشياء

وذلك؛ لأنَّ بعض الدراسات المعاصرة - لأسباب طائفية أو هوى - جعلت عقيدة أهل السنة والجماعة بشكل عام، وابن تيمية بشكل خاص في قفص الاتهام، وجعلت منهما مصدرًا وينبوعًا للتكفير، وذهبت تختزل الأقوال من سياقاتها، وتبتر المقولات، وتعمم الخاص، وتنقل جنس المقولة إلى المعين، فخلطت الأمور - عمدًا أو جهلًا -، وانتهت إلى رسم صورة سوداء قاتمة لعقيدة أهل السنة والجماعة ولابن تيمية!

وفي المقابل رسمت صورة مشرقة وجميلة للفرق الأخرى، وصوَّرتها



على أنَّها العقلانية ، والمعتدلة ، والمتسامحة ، والبعيدة عن روح التكفير والإقصاء والأحادية . فقلبت الحقائق رأسًا على عقب ، وجعلت المعتدل الذي هو ضحية التكفير هو المكفر ، والظالم المتعدي بالتكفير على الآخرين معتدلًا متسامحًا !

وصدق ابن تيمية حينما قال : « والخوارج تُكَفِّرُ أهل الجماعة ، وكذلك المعتزلة يُكَفِّرُونَ من خالفهم ، وكذلك الرافضة ، ومَن لم يُكَفِّرْ ؛ فُسِّقَ ، وكذلك أكثر أهل الأهواء يبتدعون رأيًا ، ويُكَفِّرُونَ مَن خالفهم فيه ، وأهل السنة يبتغون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يُكَفِّرُونَ مَن خالفهم فيه ، بل هم أعلم بالحق وأرحم بالخلق » [1].

ونحن هنا نضع بين يديك - أيها القارئ الكريم - بعض الأمثلة والنماذج الموثقة لمقولات بعض شيوخ الشيعة ومواقفه من المخالفين ، لتحكم بنفسك من خلال المقارنة العادلة والمنصفة .

---

(١) « منهاج السنة » : (٥ / ١٥٨) .

فرقة الشيعة الجعفرية الإمامية كأنموذج للمخالفين (١) :

(١) أقول : من أمنيات المسلمين اليوم تحقيق الوحدة الإسلامية والتقارب الحقيقي بين المذاهب الإسلامية المختلفة على الحق ، ولكن من أهم المشكلات المستعصية مشكلة (التَّقِيَّةِ) عند الشيعة ، والتي تعيق دائمًا عمليات التقارب الصادقة بين المسلمين ؛ لأنَّهم بواسطة هذه العقيدة يُظهرون لنا ما لا يُبطنون ، ويُوهموننا بخلاف ما يعتزمون فعله على أرض الواقع ، ويُعطوننا من اللسان حلاوة ، لكن على أرض الواقع تتجسد المرارة بأبشع طعم ، كل ذلك انطلاقًا من عقيدة (التَّقِيَّةِ) ، والتي يُعظِّمونها ويجعلون منها حقيقة الدين والإيمان !!

* فعن الصادق يروون أنَّه قال : « إن تسعة أعشار الدين في التَّقِيَّةِ ، ولا دين لِمَن لا تَقِيَّةَ له ». [« البحار » : (٦٦ / ٤٨٦) ، و « الخصال » : (١ / ١٤) ، و « المحاسن » ، ص : (٢٥٩) ، و « الكافي » (١ / ٢١٧) ، و « الوسائل » : (١٦ / ٢٠٤)] .

* ورووا عن الرضا أنَّه قال : « لا دين لِمَن لا ورع له ، ولا إيمان لِمَن لا تَقِيَّةَ له ، إنَّ أكرمكم عند الله أعملكم بالتَّقِيَّةِ » . [« البحار » : (٧٥ / ٣٩٥) ، و « كمال الدين » ، ص : (٣٤٦) ، و « نور الثقلين » : (٤ / ٤٧) ، و « منتخب الأثر » ، ص : (٢٢٠)].

بل يرتبون على (التَّقِيَّةِ) أعظم الأجر ، وأنَّها أفضل عبادة تقدم في مذهب التشيع ويسمونها (الخبء) ! فقد رووا عن الصادق أنَّه قال : « ما عبد الله بشيء أحب إليه من الخبء ، قيل : وما الخبء ؟ قال : التقية » . [« البحار » : (٧٥ / ٣٩٦) ، و « معاني الأخيار » ، ص : (١٦٢) ، و « الوسائل » : (١٦ / ٢٠٧ ، ٢١٩) .

وعنه أيضا قال : « إنكم على دين من كتمه أعزه الله ومن أذاعه أذله الله » . [« البحار » : (٧٥ / ٣٩٧) ، و « المحاسن » ، ص : (٤١٢) ، و « جامع الأخبار » ، ص : (٢٥٧) ، و « رسائل الخميني » .

ويوجبون (التقية) في دار أهل السنة التي يسمونها (دار التقية) ، فعن الصادق أنَّه قال : (استعمال التقية في دار التقية واجب ، ولا حنث ولا كفارة على من حلف تقية) . [« البحار » : (٧٥ / ٣٩٤ - ٣٩٥) ، و « الخصال » : (٢ / ١٥٣) ، و « عيون أخبار الرضا » : (٢ / ١٢٤) ، و « الوسائل » : (١٥ / ٥٠) .

وعن الصادق - أيضًا - أنَّه قال : « عليكم بالتقية فإنه ليس منا من لم يجعله شعاره ودثاره مع من يأمنه لتكون سجيته مع من يحذره » . [« البحار » : (٧٥ / ٣٩٥) ، و « أمالي الطوسي » ، ص : (٢٩٩)] .



أقول وبدون مبالغة - بل من خلال قراءتي لكثير من مدونات التراث الشيعي القديم والمعاصر - : إنَّ مسألة تكفير المخالفين، وتجويز اغتيالهم، والبراءة منهم، والوقيعة في أعراضهم، ولعنهم واستحلال غيبتهم، لا توجد في أي مذهب أو طائفة مثل ما توجد في المذهب الشيعي، كثرة وتدليلًا وتعضيدًا

وهذا شيخهم (الصدوق) يقول : « اعتقادنا في التقية أنها واجبة، ومن تركها بمنزلة من ترك الصلاة، ولا يجوز رفعها إلى أن يخرج القائم، فمن تركها قبل خروجه، فقد خرج عن دين الله وعن دين الإمامة، وخالف الله ورسوله والأئمة » . [« **الاعتقادات** » : (١١٤) ، ويقول علامتهم (العاملي) : «الأخبار متواترة صريحة في أن التقية باقية إلى أن يقوم القائم». [« **مرآة الأنوار** » ، ص : (٣٣٧)] .

ويقول إمامهم في هذا العصر (الخميني) : « وترك التقية من الموبقات التي تلقي صاحبها قعر جهنم وهي توازي جحد النبوة والكفر بالله العظيم » . [« **المكاسب المحرمة** » : (٢/ ١٦٢)]. ثم عندهم نوع غريب من التقية وهي (التقية المداراتية) ، والتي تمثل وجهًا دعائيًا للتشيع، من خلاله يمكن للتشيع أن يدخل الصف السني، ويروج للتشيع ! فهذا الخميني » ، يعدد أنواع التقية ويذكر أن منها (التقية المداراتية) ، وعرفها بقوله : « وهو تحبيب المخالفين وجر مودتهم من غير خوف ضرر » . [« **الرسائل للخميني** » : (٢ / ١٧٤)] . وقال : إن التقية واجبة من المخالفين، ولو كان مأمونًا، وغير خائف على نفسه وغيره . [« **الرسائل** » : (٢/ ٢٠١)] . ويقول شيخهم (محسن الخرازي) : « وقد تكون التقية مدارة من دون خوف وضرر فعلي لجلب مودة العامة والتحبيب بيننا وبينهم » . [« **بداية المعارف الإلهية** » ، ص : (٤٣٠)] .

ويقول علامتهم (دستغيب) : « ومنها التقية المستحبة وتكون في الموارد التي لا يتوجه فيها للإنسان ضرر فعلي وآني، ولكن من الممكن أن يلحقه الضرر في المستقبل، كترك مدارة العامة ومعاشرتهم » . [« **أجوبة الشبهات** » ، ص : (١٥٩)] .



وقبولًا [1] !

فالباحث الحيادي يُذْهَلُ ويُصْدَمُ بسبب الكم الهائل من النصوص والأقوال التي تقرر هذه العقيدة تجاه المخالفين من المسلمين ، بل وينقلون الإجماع عليها [2] .

ونكتفي هنا بعرض نصوص قليلة لبيان هذه المسألة عند الشيعة ، كما يلي :

(١) لن أتعرض في هذا المبحث لموقف الشيعة من أمهات المؤمنين ـ عليهن السلام ـ ، ومن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ، وتكفير الشيعة لعمومهم ، فموقف الشيعة من الصحابة معروف وواضح وجلي ، ومُجمَع عليه عندهم ، وهو من ضروريات مذهبهم ، ومَن أراد معرفة عقيدتهم في ذلك ؛ فليراجع الكتب المختصة ، وسيجد اتفاق الشيعة على رِدَّة الصحابة وكفرهم إلَّا قِلَّة قليلة تُعَدُّ على أصابع اليد ، وأنَّ ذلك من ضروريات قولهم بالإمامة الإلهية ، وما ما ذكر سوى ذلك ؛ فما هو إلا تَقِيَّةٌ ومخادعة !

(٢) أقول : لعلي ـ إن شاء الله ـ أُخَصِّصُ كتابًا مُستقلًا لهذا الموضوع .



المبحث الأول
موقفهم من عموم الفرق الإسلامية المخالفة

يقول الشيخ المفيد - شيخ الشيعة في عصره - حاكيًا إجماع الشيعة في موقفهم تجاه المخالفين :

« اتفقت الإمامية على أنَّ أصحاب البدع كلهم كفار ، وأنَّ على الإمام أن يستتيبهم عند التمكن بعد الدعوة لهم وإقامة البينات عليهم ، فإن تابوا عن بدعهم وصاروا إلى الصواب ، وإلَّا قتلهم لردتهم عن الإيمان ، وأنَّ من مات منهم على تلك البدعة ؛ فهو من أهل النار »[1].

وهذا علامتهم ومحققهم عبد الله شبر ، يُبَيِّنُ حكم جميع الفرق الإسلامية - حتى المسالمة منها - عند علماء الشيعة ، فيقول :

« وأما سائر المخالفين ممن لم ينصب ولم يعاند ولم يتعصب ، فالذي عليه جملة من الإمامية كالسيد المرتضى أنَّهم كفار في الدنيا والآخرة ، والذي عليه الأكثر الأشهر أنَّهم كفار مخلدون في الآخرة »[2].

وقال شيخهم علامتهم نعمة الله الجزائري مُبيِّنًا حقيقة حجم الخلاف - كما يراه هو - بين الشيعة والسنة : « لم نجتمع معهم على إله ولا نبي ولا على إمام ، ولك أنهم يقولون : إنَّ ربهم هو الذي كان محمد - صلى الله عليه

---

(١) « أوائل المقالات في المذاهب والمختارات » - محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالمفيد ، ص: (٥١-٥٢) ، دار الكتاب الإسلامي - بيروت .

(٢) « حق اليقين في معرفة أصول الدين » - عبد الله شبر : (٥١٠) ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .



وسلم ـ نبيه ، وخليفته بعده أبو بكر ، ونحن لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي ، بل نقول : إن الرب الذي خليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبي نبينا » [1].

وإذا كانت جميع الفرق الإسلامية المخالفة للشيعة هذه هي حالتهم ، فماذا يترتب على ذلك ؟ وبأي معاملة يمكن أن يتعامل معهم ؟ **يجيب علماء الشيعة فيقولون :**

قال الخميني عن المسلم غير الشيعي :

« غيرنا ليسوا بإخواننا وإن كانوا مسلمين ... فلا شبهة في عدم احترامهم ، بل هو من ضروري المذهب كما قال المحققون ، بل الناظر في الأخبار الكثيرة في الأبواب المتفرقة لا يرتاب في جواز هتكهم والوقيعة فيهم ، بل الأئمة المعصومون ، أكثروا في الطعن واللعن عليهم وذكر مساوئهم » [2].

ثم أورد الخميني هذه الرواية : « عن أبي حمزة ، عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ ، قال : قلت له : إنَّ بعض أصحابنا يفترون ويقذفون من خالفهم، فقال : الكف عنهم أجمل ، ثم قال : يا أبا حمزة إنَّ الناس كلهم أولاد بغاة ـ أي أولاد زنا ـ ما خلا شيعتنا » [3].

---

(١) « الأنوار النعمانية » ـ نعمة الله الجزائري : (٢ / ٢٧٩) ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ـ لبنان .

(٢) « المكاسب المحرمة » ـ الخميني : (١ / ٢٥١) الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ ، مطبعة إسماعليان ، قُم .

(٣) « المكاسب المحرمة » : (١ / ٢٥١)

فقال الخميني مُعَلِّقًا على تلك الرواية : « الظاهر منها جواز الافتراء والقذف عليهم » [1] !

وقال شيخهم الأنصاري : « ظاهر الأخبار اختصاص حرمة الغيبة بالمؤمن - أي الشيعي - ، فيجوز اغتياب المخالف ،كما يجوز لعنه » [2].

ونسبوا كذبًا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنَّه قال : « إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم ، وأكثروا من سبهم ، والقول فيهم والوقيعة ، وباهتوهم كي لا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس ، ولا يتعلمون من بدعهم ، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ، ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة » [3].

وهذه الرواية صححها الشهيد الثاني [4] ، ومحققهم الأردبيلي [5] ، وعبد الله الجزائري [6] ، وقال بتصحيحها أيضًا محققهم البحراني ، حيث قال : « ورد في جملة من الأخبار جواز الوقيعة في أصحاب البدع ومنهم الصوفية » (كما رواه في الكافي في الصحيح) [7] ، ومحققهم النراقي ، حيث قال بعد تصحيح الرواية السابقة : « فتجوز غيبة المخالف ،

---

(١) « المكاسب المحرمة » : (١ / ٢٥١) .
(٢) « كتاب المكاسب » - الأنصاري : (١ / ٣١٩) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، مطبعة باقري ، قُم.
(٣) « الكافي » - الكليني : (٠٢ / ٣٦٠) .
(٤) « مسالك الأفهام » : (١٤ / ٤٣٤) .
(٥) « مجمع الفوائد » : (١٣ / ١٦٣) .
(٦) « التحفة السنية » ، ص : (٣١) .
(٧) « الحدائق الناضرة » : (١٨ / ١٦٤) .



والوقيعة: الغيبة .. وتؤكده النصوص المتواترة الواردة عنهم في طعنهم ولعنهم وتكفيرهم، وأنهم شر من اليهود والنصارى، وأنجس من الكلاب »[1]، وكذلك شيخهم الأنصاري[2]، ومرجعهم الأكبر الخوئي، **حيث قال**: « قد دلَّت الروايات المتضافرة على جواز سب المبتدع في الدين ووجوب البراءة منه واتهامه »[3].

كما صححها - أيضًا - مرجعهم الكلبايكاني، حيث قال: « وأما المبتدع فيجوز ذكره بسوء؛ لأنَّه مستحق للاستخفاف »[4]، ومرجعهم محمد سعيد الحكيم[5]، والروحاني[6]، والطريحي، **حيث قال مُعَلِّقًا**: «فاعلم؛ أنَّه لا ريب في اختصاص تحريم الغيبة بمن يعتقد الحق، فإنَّ أدلة الحكم غير متناولة لأهل الضلال كتابًا ولا سنة »[7]، وعلامتهم المجلسي[8].

قال مرجعهم المعاصر الخوئي: « ثبت في الروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين ووجوب البراءة منهم، وإكثار السب عليهم، واتهامهم، والوقيعة فيهم: أي غيبتهم؛ لأنَّهم من أهل البدع

---

(١) « مستند الشيعة »: (١٤ / ١٦٢).
(٢) « المكاسب »: (١ / ٣٥٣).
(٣) « مصباح الفقاهة »: (١ / ٢٨١).
(٤) « الدر المنظور »: (٢ / ١٤٨).
(٥) « مصباح المنهاج »، ص: (٣٥٩).
(٦) « فقه الصادق »: (١٤ / ٢٩٦).
(٧) « مجمع البحرين »: (٣ / ٣٤٣).
(٨) « بحار الأنوار »: (٧٢ / ٢٣٥).

والريب . بل لا شبهة في كفرهم »[1].

ثم قال بعدها : « الوجه الثالث : أنَّ المستفاد من الآية والروايات هو تحريم غيبة الأخ المؤمن ، ومن البديهي أنَّه لا أخوة ولا عصمة بيننا وبين المخالفين »[2].

وقال سيدهم الروحاني : « جواز غيبة المخالف من المسلمات عند الأصحاب »[3].

ويقول شيخهم الصادق الموسوى مُعَلِّقًا على رواية منسوبة للسجاد تشبه ما نسبوه لنبينا الأعظم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إنَّ الإمام السجاد يجيز كل تصرف بحق أهل البدع .. من قبيل البراءة منهم وسبهم وترويج شائعات السوء بحقهم والوقيعة والمباهتة ، كل ذلك حتى لا يطمعوا في الفساد في الإسلام وفي بلاد المسلمين وحتى يحذرهم الناس لكثرة ما يرون وما يسمعون من كلام السوء عنهم هكذا يتصرف أئمة الإسلام لإزالة أهل الكفر والظلم والبدع ، فليتعلم المسلمون[4] من قادتهم وليسيروا على منهجهم »[5] !!

---

(١) « مصباح الفقاهة » : (١/ ٥٠٤) .

(٢) « مصباح الفقاهة » : (١/ ٥٠٥) .

(٣) « فقه الصادق » : (١٤/ ٣٥٤) .

(٤) أقول : انظر أخي المسلم كيف يحثُّ هذا الشيخ الشيعي عمومَ الشيعة للسير على منهج السب وترويج شائعات السوء والوقيعة على الآخرين ، و البراءة من المسلمين والمخالفين لهم !

(٥) « نهج الانتصار » ، ص : (١٥٢) . وانظر : « تنبيه الخواطر » : (٢/ ١٦٢) ، و « سائل الشيعة » : (١١/ ٥٠٨) .

المبحث الثاني
موقفهم من الأشاعرة

موقفهم من الأشاعرة - خصوصًا - لاختلف عن سائر مواقفهم من عموم أهل السنة، من حيث الشدة والغلو في التكفير والإخراج عن دائرة الإسلام.

فقد روى عالمهم الكبير المازندراني حديثًا منسوبًا إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، وهو قوله: « القدرية مجوس هذه الأمة ». ثم علق عليه، فقال: « هم الأشاعرة وغيرهم من القائلين بالجبر »[1].

وقال أيضًا: « فالأشاعرة هم أنذل وأنزل من أن يفهموا هذه المعاني »[2].

وأطبق علماء الشيعة على وصف الأشاعرة بالشرك والتجسيم، بسبب إثباتهم بعض الصفات، وهي الصفات التي تسمى (صفات المعاني) وهي سبع صفات أثبتها الأشاعرة لله - عز وجل -، ووصف الأشاعرة بالشرك والتجسيم يلزم منه وصف كافة أهل السنة والجماعة بالشرك والتجسيم على معتقد الشيعة!

يقول العالم الإمامي الشيعي المازندراني: « إنَّ كثيرًا من محدثي العامة والكرامية، بل الأشاعرة يثبتون له - تعالى - صفات الجسم، ولوازم الجسمية، ويتبرءون من التجسيم، مثلًا يقولون: إنَّه على العرش حقيقة،

---

(١) « شرح أصول الكافي » - محمد صالح المازندراني: (٥/ ١١).
(٢) « شرح أصول الكافي »: (٣/ ١٠٢).



وإنَّه يُرى في الآخرة ، ورآه نبينا ـ صلى الله عليه وأله وسلم ـ بعيني رأسه ، وإنَّه ينزل في كل ليلة جمعة ولكن ليس جسمًا ، وهذا تناقض يلتزمون به ولا يبالون ، وهذا يدل على عدم تفطنهم لكثير من اللوازم البينة أيضًا ، وعندنا هو عين التجسيم »[1] .

وقد نسب نصير الطوسي ، وعلامتهم الحلي ، ومحمد حسن ترحيني إلى الأشاعرة الشرك والتعدد في ذات الله ، حيث زعموا إنَّه يلزم الأشعرية من مذهبهم في الصفات وجود قدماء مع الله في الأزل ، وهذا شرك وتعدد[2] .

وهذا حافظهم رجب البرسي ـ أحد علماء الإمامية ـ يقول : « وأما الإمامية الإثنا عشرية ، فإنَّهم أثبتوا لله الوحدانية ، ونفوا عنه الإثينية ، ونهوا عنه المثل والمثيل ، والشبه والتشبيه ، وقالوا للأشعرية : إنَّ ربنا الذي نعبده ونؤمن به ليس هو ربكم الذي تشيرون إليه ؛ لأنَّ الرب مبرأ عن المثلات ، منزه عن الشبهات ، متعال عن المقولات »[3] .

وقال مصطفى الخميني : « ولعمري إنَّ هذه الشبهة ربما أوقعت الأشاعرة في الهلكة السوداء ، والبئر الظلماء ، حتى أصبحوا مشركين أو

---

(١) « شرح أصول الكافي » : (٣ / ٢٠٢) .
(٢) انظر : « شرح الإشارات والتنبيهات » ـ الطوسي ، تحقيق : سليمان دنيا : (٣ / ٧٠) ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف . والرسالة السعدية ـ الحلي ، عناية : محمود المرعشي ، عبد الحسين محمد علي بقال ، ص : (٥٠ ـ ٥١) . و « الإحكام في علم الكلام » ـ السيد محمد حسن ، ص: (٢٥) دار الأمير للثقافة والعلوم .
(٣) « مشارق أنوار اليقين » ـ البرسي ، تحقيق : علي عاشور ، ص : (٣٣٧) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .



ذاهلة عقولهم عن الدين »[1].

وذهب العالم الإمامي الشيعي نعمة الله الجزائري - بناء على ما تقدم - إلى الحكم على الأشعرية بالكفر، بل وجعهلم في درجة أسوء من المشركين الأصليين!

يقول: « الأشاعرة[2] لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح، بل عرفوه بوجه غير صحيح، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين باقي الكفار.. فالأشاعرة ومتابعوهم أسوء حالًا في باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى.. فمعرفتهم له - سبحانه - على هذا الوجه الباطل من جملة الأسباب التي أورثت خلودهم في النار مع إخوانهم من الكفار »[3].

---

(١) « **تفسير القرآن الكريم مفتاح أحسن الخزائن الإلهية** » - السيد مصطفى الخميني، تحقيق: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني: (١ / ١٠٣)، مؤسسة العروج، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٢) **أقول**: يحاول الشيعة استخدم الحيل الملتوية في تفريق أهل السنة، وذلك كقولهم: «نحن ليس بيننا وبين السنة مشكلة، مشكللتنا فقط مع الوهابية أو مع السلفية»، وهذا القول مع كونه محاولة شيعية للتفريق بين أهل السنة، فإنَّه أيضًا من الكذب المحض؛ لأنَّهم - كما قرأت سابقًا - لا يفرقون في تكفيرهم بين أحد من أهل السنة.

(٣) « **الأنوار النعمانية** »: (٢ / ٢٧٨).



المبحث الثالث
موقفهم من الصوفية

لـم يكن موقف الشيعة من الصوفية أحسن حالًا من موقفهم من سائر المخالفين ، فالصوفية عندهم مثل الأشاعرة ، والذين هم من عامة المسلمين من غير الشيعة .

يقول شيخ الشيعة ومحدثهم وفقيههم الحر العاملي :

« لا يوجد للتصوف وأهله في كتب الشيعة وكلام الأئمة - عليهم السلام - ذكر إلّا بالذم ، وقد صنفوا في الردّ عليهم كتبًا متعددة ذكروا بعضها في فهرست كتب الشيعة .

قال بعض المحققين من مشايخنا المعاصرين : اعلم أنَّ هذا الاسم ، وهو اسم التصوف كان مستعملًا في فرقة من الحكماء الزايغين من أعداء آل محمد، كالحسن البصري ، و سفيان الثوري ، ونحوهما ، ثم جاء فيمن جاء بعدهم ، وسلك سبيلهم ، كالغزالي رأس الناصبين لأهل البيت »[1] .

وقال أيضا : « روي شيخنا الجليل الشيخ بهاء الدين محمد العاملي في كتاب الكشكول ، قال : قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم من أمتى اسمهم صوفية ليسوا مني ، وإنَّهم يهود أمتي وهم أضل من الكفار ، وهم أهل النار »[2] .

---

(١) « رسالة الاثنى عشرية في الرد على الصوفية » - الحر العاملي ، ص : (١٣ - ١٦) .
(٢) « رسالة الاثنى عشرية في الرد على الصوفية » - الحر العاملي ، ص : (١٣ - ١٦) .



ثم عقد فصلًا كاملًا تحت عنوان : « ذكر بعض مطاعن مشايخ الصوفية وجواز لعن المبتدعين والمخالفين والبراءة منهم »[1]، وسرد الروايات والأقوال في مطاعن الصوفية ولعنهم والافتراء عليهم !

(١) انظر كامل : « رسالة الاثنى عشرية في الرد على الصوفية » ـ الحر العاملي .



المبحث الرابع
لمحة سريعة لواقعهم التاريخي مع أهل السنة

أما من الناحية العملية، فإنَّ ذاكرة الأمة الإسلامية المثقلة بالآلام لا زالت تستعيد الصور المريرة لسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ، وتتذكر ما فعله الوزير الشيعي ابن العلقمي حينما خان الخلفية الذي وثق به، وتعاون مع التتار سرا لغزو بغداد وتدميرها.

فقد ذكر قطب الدين اليونيني البلعبكي أن ابن العلقمي كاتب التتار، وأطمعهم في البلاد، وأرسل إليهم غلامه وأخاه بذلك [١].

وذكر الإمام الذهبي أنَّ ابن العلقمي استطاع أن يقطع أخبار الجند الذين استنجد بهم المستنصر، وأنَّه بذل جهده في أن يزيل دولة بني العباس ويقيم علويًّا، وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه [٢].

وذكر اليافعي أن التتار دخلوا بغداد ووضعوا السيف في أهلها، واستمر القتل والسبي نيفًا وثلاثين يومًا، وقل من نجا، وذكر أنَّ سبب دخولهم هو ابن العلقمي الذي كاتبهم وحرضهم على قصد بغداد ليقيم خلفية علويًّا، وكان يكاتبهم سرًّا، ولا يدع المكاتبات تصل إلى الخليفة.

ثم ذكر اليافعي أنَّ الوزير ابن العلقمي خدع الخليفة، وأوهمه أن التتار يريدون عقد الصلح معه، وحثَّه أن يخرج إليهم بأولاده ونسائه وحاشيته،

---

(١) انظر: «ذيل مرآة الزمان» ـ سبط ابن الجوزي: (١/ ٨٥).
(٢) «دول الإسلام» (٢/ ١١٨).



فخرجوا فضربت رقاب الجميع ، وصار كذلك يخرج طائفة بعد طائفة ، فتضرب أعناقهم حتى بقيت الرعية بلا راع ، وقتل من أهل الدولة وغيرهم ألف ألف وثمان مائة [1].

ويقول المؤرخ الشيعي نور الله الششتري المرعشي ما نصه عن حقيقة الدور الذي لعبه ابن العلقمي : « إنَّه كاتب هولاكو والخواجة نصير الدين الطوسي ، وحرضهما على تسخير بغداد للانتقام من العباسيين بسبب جفائهم لعترة سيد الأنام ﷺ » [2].

ويقول العالم الشيعي الخوانساري عند ترجمته لنصير الدين الطوسي ما نصه :

« ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم هولاكو خان ، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد ، بإبادة ملك بني العباس ، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطغام ، إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار فانهار بها في ماء دجلة ، ومنها إلى نار جهنم دار البوار » [3] !

ومِمَّا يُؤْسَفُ له أنَّ هذا التصرف كان محل تقدير واحترام من الشيعة ، بل إنَّ جنس هذا الفعل مقرر في الأدبيات الشيعية ، ومحل تقدير واستحباب !

---

(١) « مرآة الجنان » : (٤ / ١٣٧ ـ ١٣٨) .
(٢) « مجالس المؤمنين » ، ص : (٤٠٠) .
(٣) « روضات الجنات » : (٦ / ٣٠٠) .



فهذا إمام الشيعة المعاصر الخميني يقول بكل صراحة ما نصه : « إذا كانت ظروف التقية تلزم أحدًا منا بالدخول في ركب السلاطين ، فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتى لو أدى الامتناع إلى قتله ، إلَّا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين مثل دخول بن يقطين ونصر الدين الطوسي - رحمهما الله - » [1] .

أما خدمة نصير الدين الطوسي ، فقد عرفها الجميع حينما قد مع التتار لإبادة بغداد ، أما خدمة علي بن يقطين للإسلام فندع بيانها لأحد علماء الشيعة وهو علامتهم نعمة الله الجزائري وملخصها كما يلي حسب ما ذكره :

أن علي بن يقطين كان مسئولا في الدولة العباسية ، وسنحت له الفرصة لقتل خمسمائة سني وصفهم بقوله : (جماعة من المخالفين) ، فقتلهم بأن هدم عليهم سقف السجن فماتوا كلهم ، فأرسل يستفسر عن عمله عند إمامهم المعصوم فأقره على عمله وعاتبه أنَّه لم يستأذنه في قتلهم . ثم جعل كفارة كل رجل من أهل السنة (تيسا) ، وقال : التيس خير منهم [2] .

يقول العالم الشيعي نعمة الله الجزائري معلقا على هذه الحادثة :

« فانظر إلى هذه الجزية التي لا تعادل دية [يقصد أهل السنة] أخيهم الأصغر وهو كلب الصيد ، فإن ديته عشرون درهما ، ولا دية أخيهم الأكبر وهو اليهودي » [3] .

---

(١) « الحكومة الإسلامية » ، ص : (١٤٢) .
(٢) « الأنوار النعمانية » : (٢ / ٣٠٨) .
(٣) « الأنوار النعمانية » : (٢ / ٣٠٨) .



ومِمَّا يُؤْسَفُ له أنَّ ابن العلقمي لـم يكن وحده في ذلـك ، بـل كـان معه كثرة كاثرة من شيعة بغداد قد فعلوا فعله !

قد ذكر المؤرخ رشيد آل دين الهمداني والمؤرخ أبـو المحاسـن أنَّ الـشيعة في الكرخ ، والحلة ، وبغداد ، خرجوا في استقبال هولاكـو اسـتقبال الفـاتحين الأبطال ، والتحق كثير من الشيعة بجيش المغول ، وأقـاموا الأفـراح ابتهاجـا بهم [١] !

ومن الخدمات الجليلة التي قدمها نصير الـدين الطـوسي تلـك الرسـالة التي كتبها - بوصفه وزيرا لهولاكـو - إلى أهـل الـسنة في الـشام ، يهـددهم فيهـا ويتوعدهم إذا هم لـم يدخلوا في طاعة التتار ، وأنَّه سوف يفعل بهم كما فعـل بأهل بغداد !!

يقول الطوسي : « اعلموا أنا جند الله ، خلقنا من سـخطه ، فالويـل كـل الويل لـمن لـم يكن من حزبنا ، قد خربنـا الـبلاد وأيتمنـا الأولاد ، وأظهرنـا في الأرض الفـساد ، فـإن قبلـتم شرطنـا ، وأطعـتم أمرنـا ، كـان لكـم مالنـا ، وعليكم ما علينا » [٢] .

وهذا عميد الطائفة الشيعة في بغداد وقت سقوطها ابـن طـاووس يعلـن عن فرحته بدمار دولة الإسلام ويسميه فتحا ، ويترحم على هولاكو ، حيـث يقول :

« يوم ثامن عشر محرم وكان يوم الإثنين سنة ٦٥٦هـ فتح ملك الأرض

---

(١) « جامع التواريخ » : (١/ ٢٥٩) ، و « النجوم الزاهرة » : (٧/ ٤٩) .
(٢) « مخطوطة في مكتبة كلية الآداب » ، جامعة بغداد ، رقم : (٩٧٥) .

- يقصد هولاكو - زيدت رحمته ومعدلته ببغداد »[1].

وذكر المؤرخ الشيعي ابن الطقطقي أن ابن طاووس أصدر فتوى لهولاكو يفضل فيها العادل الكافر على المسلم الجائر[2] !!

يقول العالم الشيعي على العدناني الغريفي معلقًا على هذه الحادثة: «وقد نال ابن طاووس بفتياه هذه مقامًا كبيرًا في نفس الكافر المحتل »[3].

ومكافأة له قام هولاكو بتعيينه مرجعًا دينيًّا للشيعة (!!) يقول ابن طاووس نفسه: « ولم نزل في حمة السلامة الإلهية، وتصديق ما عرفناه من الوعود النبوية، إلى أن استدعاني ملك الأرض - هولاكو - إلى دركاته المعظمة جزاه الله بالمجازات المكرمة في صفر، وولاني على العلويين والعلماء والزهاد وصحبت معي نحو ألف نفس ومعنا من جانبه من حمانا إلى أن وصلت الحلة ظاهرين بالآمال »[4].

وذكر علامتهم ابن مطهر الحلي أنَّ أباه والسيد ابن طاووس والفقيه ابن أبي العز، أجمع رأيهم على مكاتبة هولاكو بأنهم مطيعون داخلون تحت دولته. وأن هولاكو سألهم بما معناه: لماذا تركتكم خليفتكم ؟ ولماذا تخونونه ؟ ألا تخافون منه إذا انتصر علي ؟!

فأجبه والد ابن مطهر الحلي بأن رواياتهم المذهبية تحثهم على مبايعتك

---

(١) « إقبال الأعمال »، ابن طاووس، ص: (٥٨٦).
(٢) « الفخري في الآداب السلطانية »، ص: (١٧).
(٣) « مقدمة بناء المقالة الفاطمية » - ابن طاووس، ص: (١٨).
(٤) « إقبال الأعمال »، ص: (٥٦٨).



وترك الدولة العباسية، وأنك أنت المنصور الظافر !

ويعلق ابن مطهر الحلي على قصة والده : « فطيب قلوبهم وكتب فرمانا باسم والدي يطيب فيه قلوب أهل الحلة وأعمالها »[1].

---

(١) « سفينة النجاة » ـ عباس اللقمي (١ / ٥٦٨) . أقول : من فضل الله أنَّني قد انتهيت من كتاب وثقته من مصادر الشيعة الأصلية ومن نصوصهم المهمة والخطيرة ، والمتعلقة بقضية سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد ٦٥٦هـ ، وسيجد القارئ الكريم ما يصدمه من أقوال وأفعال هؤلاء والتي يندى لها جبين كل حر . وقد سميت الكتاب : « ثقوب وثغرات في أسوار بغداد » ، ولعله أن يرى النور قريبًا بإذن الله .



المبحث الخامس
موقفهم من الفرق الشيعية الأخرى

يبدو أنَّ الغلو في التكفير قد وصل إلى حد عظيم، حيث تعدى الفرق غير الشيعية إلى الفرق الشيعية - أيضًا - من غير الاثنى عشرية، كالواقفة، والفطحية، والناووسية، والزيدية، والإسماعيلية، والعلوية النصيرية، وغيرها من فرق الشيعة الأخرى، التي تعتبر كافرة عند الاثنى عشرية!

فهذا مرجعهم الكبير المعاصر آية الله العظمى محمد الحسيني الشيرازي يقول: « وأما سائر أقسام الشيعة غير الاثنى عشرية، فقد دلت نصوص كثيرة على كفرهم ككثير من الأخبار المتقدمة، الدالة على أن من جحد إمامًا كان كمن قال: إن الله ثالث ثلاثة »[1].

يقول شيخهم وعلامتهم بهاء الدين العاملي: « المستفاد من تصفح كتب علمائنا، المؤلفة في السير والجرح والتعديل، أنَّ أصحابنا الإمامية كان اجتنابهم لمن كان من الشيعة على الحق أولًا، ثم أنكر إمامة بعض الأئمة - عليهم السلام - في أقصى المراتب، بل كانوا يحترزون عن مجالستهم، والتكلم معهم فضلًا عن أخذ الحديث عنهم، بل كان تظاهرهم بالعداوة لهم

(١) « كتاب الفقه »، الشيرازي: (٤ / ٢٦٩) دار العلوم، بيروت - لبنان.



أشد من تظاهرهم لها للعامة [١] ، فإنَّهم كانوا يتقون العامة ، ويجالسونهم وينقلون عنهم ، ويظهرون لهم أنهم منهم ، خوفًا من شوكتهم ؛ لأنَّ حكام الضلال منهم .

وأما هؤلاء المخذولون : فلم يكن لأصحابنا الإمامية ضرورة داعية إلى أن يسلكوا معهم على ذلك المنوال ، وخصوصا « الواقفهة » ، فإن الإمامية كانوا غاية الاجتناب لهم ، والتباعد عنهم ، حتى أنهم كانوا يسمونهم «الممطورة» أي الكلاب التي أصابها المطر . وأئمتنا ـ عليهم السلام ـ كانوا ينهون شيعتهم عن مجالستهم ومخالطتهم ، ويأمرونهم بالدعاء عليهم في الصلاة ، ويقولون : إنَّهم كفار ، مشركون ، زنادقة ، وأنَّهم شر من النواصب ، وأن من خالطهم فهو منهم . وكتب أصحابنا مملوءة بذلك » [٢] .

---

(١) أقول : يقصد بمصطلح (العامة) أهل السنة . ثم تأمل في اعترافه بخداعهم لأهل السنة وإظهارهم خلاف ما يبطنون ، واعتقادهم بأن حكام المسلمين حكام ضلال ! الا يحسن بالمخلصين والصادقين والعقلاء أن يراجعوا مواقفهم ، وأن يتأملوا عقيدة الكراهية عند الشيعة ـ هداهم الله ـ تجاه الآخرين ، فهم كما يقرر شيخهم العاملي يداهنون أهل السنة حينما يكون أهل السنة أقوياء وبيدهم الحكم ، لكن حينما لا تكون بين أهل السنة قوة ، فإن الشيعة لا يحتاجون بعد للتقية أو المداهنة ، ولذلك فإنَّهم يظهرون على حقية طباعهم وقناعاتهم ، كما فعلوا مع فرقة الواقفة على ما يحكى ذلك شيهم بهاء الدين العاملي !

أو كما يفعلون اليوم بالعراق من قتل يومي لأهل السنة على يد المليشيات الشيعية وفرق الموت الصفوية ، والتي ترمي يوميًا بأكثر من خمسين جثة بلا رأس لأطفال وشيوخ وشباب أهل السنة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) « مشرق الشمسين » ـ الشيخ بهاء الدين العاملي : (٢٧٣-٢٧٤) مطبعة مهر ، الطبعة الحجرية ، إيران ـ قم : (١٣٩٨) . أقول : وقد نقل شيخهم الحر العاملي الكلام السابق بطوله مؤيدًا وناصرًا له في رسائل الشيعة : (٣ / ٢٠٣-٢٠٤) .

ويقول عالمهم البياضي في حق الشيعة الإسماعلية: « إنَّهم خارجون عن الملة الحنيفية بالاعتقادات الردئية [1]، وذلك أنَّهم قالوا: كل ظاهر فله باطن، وأن الله بتوسط كلمة «كن» أوجد عالمي الخلق والأمر، فجعلوه محتاجًا في فعله إلى الواسطة والآلة»[2].

وقال علامتهم محمد طاهر النجفي: « وأما الإسماعيلية فمذهبهم وضاح البطلان، لسوء عقائدهم، وقبح مذاهبهم » [3]. ونص المحقق الحلي على نجاسة الإسماعيلية [4]. ووصف عبد الله شبر الإسماعيلية بأنَّها من « من الفرق الضالة المبتدعة » [5]. وقال النوري الطبرسي: « ووافقنا على ذلك السيد الفاضل المعاصر -

---

(١) أقول: لم تقف الإسماعيلية مكتوفة اليد أمام هذا الهجوم الاثني عشري، فقد ردت الإسماعيلية التضليل بالتضليل، والتكفير بالتكفير، حيث رأوا أنَّ بعض أئمة الاثنى عشرية أئمة ضلال، وأنَّهم أظموا الفرية على الله، وأنَّهم جاءوا ليطفئوا نور الله، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها، وأنَّهم شابهوا عقيدة النصارى في مهديهم الذي سيرجع آخر الزمان ليفصل بين الحق والباطل .. إلخ. انظر: « سارئر وأسرار النطقاء » - الداعي جعفر بن منصور اليمن، تحقيق: مصطفى غالب، ص: (٢٤٦ - ٢٦٤) دار الأندلس.

(٢) « كتاب الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم » - على العاملي البياضي: (٢/ ٢٧٢) المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.

(٣) « الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين » - النجفي القمي، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، ص: (٤٩٢).

(٤) انظر: « شرائع الإسلام »، الحلي: (١/ ١٢).

(٥) « حق اليقين »، ص: (٢٥١).



الخونساري ـ رحمه الله في الروضات في ترجمة جلال الرومي حيث قال :

الإسماعيلية [1]، وإن كانوا في ظاهر دعاويهم الكاذبة، من جملة فرق الشيعة المنكرين لخلافة غير أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ، إلَّا أنَّ الغالب عليهم الإلحاد، والزندقة، والمروق عن الدين، والخروج عن دائرة الموحدين، والمليين، وأتباع النبيين » [2].

وكما ترى فإن شعار التكفير والإقصاء وصل حتى الفرق الشيعية الأخرى، ولم يختلف حالها عن غيرها من الفرق والطوائف غير الشيعية.

---

(١) أقول : يشتكي الدكتور الإسماعيلي المعاصر عارف تامر من ظلم الشيعة الاثني عشرية لطائفته الإسماعيلية عبر التاريخ، حيث يقول : « صرت أخشى أن ينالني مثلهم ـ يقصد قدماء الإسماعيلية ـ، وأن يأتيني الدور فأتهم في عقيدتي وديني. إن كل هذا يدفعني إلى الترحم على الأمويين والعباسيين الأعداء، فهم ليسوا أقسى قلبًا من أبناء العم الأقربين ». كتاب افتتاح الدعوة ـ القاضي النعمان التميمي، تقديم : عارف تامر، ص : (١٠) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، دار الأضواء ـ بيروت.

أقول : تأمل أخي القارئ ـ وفقك الله ـ ما قاله الدكتور الإسماعيلي، ثم تمعن طويلًا في كلام ابن تيمية، لتعلم أن ما يقوله هذا الإمام الرباني عن تجربة حقيقة، وأنَّه لا يرمي بالكلام في الهواء.

قال ابن تيمية : « فأهل السنة يستعملون معهم ـ أي المخالفين ـ العدل والإنصاف، ولا يظلمونهم، فإنَّ الظلم حرام مطلقًا. بل أهل السنة لكلِّ طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون هم به، ويقولون : أنتم تنصفوننا ما لا نصف بعضًا بعضًا .. ولا ريب أنَّ المسلم العالِم أعدل عليهم وعلى بعضهم من بعض ». [« منهاج السنة النبوية » : (٥ / ١٥٧ـ١٥٨)].

(٢) « **خاتمة مستدرك الوسائل** » ـ المحقق الميرزا النوري الطبرسي : (١ / ١٣٩) تحقيق : مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، مدينة قم.

المبحث السادس
التكفير الشيعي الإمامي الداخلي

لأنَّ الشيعة الإمامية ـ للأسف ـ فرقة تؤمن بالتعصب والحدية، فقد انتقل هذا السعار إلى داخل الفرقة نفسها، ووصل إلى درجات خطيرة من التعصب والبعد عن الإنسانية!

فقد انقسمت الشيعة الاثنا عشرية إلى فرق وطوائف كثيرة، من أبرزها: الإخبارية، والأصولية، والشيخية. وقد جرى بين تلك الطوائف ردود ومنازعات، وتكفير وتشنيع، حتى إن بعضهم أفتى بتحريم الصلاة خلف البعض الآخر[1]!

يقول حجتهم محمد حسن آل الطلقاني: «أوغل الإخباريون في الزدراء بالأصوليين إلى درجة عجيبة، حتى إنَّنا سمعنا من مشايخنا والأعلام وأهل الخبرة و الاطلاع على أحوال العلماء، أن بعض فضلائهم كان لا يلمس مؤلفات الأصوليين بيده تحاشيا من نجاستها، وإنَّما يقبضها من وراء ملابسه»[2].

وتكلم الطالقاني عن طبيعة الخلاف بينهم، وإلى أي مستوى هبط بين علماء المذهب الشيعي، فقال: «كانت اللهجة قاسية والأسلوب نابيًا، وقد تزعم فريق الإخباريين في تلك الفترة الميرزا محمد النيشابوري المعروف

---

(١) انظر: «تنقيح المقال في أحوال الرجال»: (٢ / ٨٥)، «مع علماء النجف» ـ محمد جواد مغنية، ص: (٧٤)، و «الشيخية» ـ الطالقاني: (٣٩).

(٢) «الشيخية»، ص: (٣٩). وانظر: «جامع السعادات»، ص: (١).



بالأخباري ، كما تزعم فريق الأصوليين الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي» [1].

ثم يقول الطالقاني : « وقد تطرف الإخباري إلى أبعد حد ووسع شقة الخلاف كثيرًا ، وتخلى عن الأدب والحشمة والاحترام في مناقشته لعلماء الأصوليين في نقده ورده على السواء ، وتطاول على أساطين الدين وعظماء المذهب بالشتم واستعمل بذئ القول ومرذوله ، أدى إلى وقوف العلماء قاطبة في وجهه وإجماعهم على هتكه وتحطيمه ، حتى انتهت القصة بمأساة فظيعة ، فقد قتل على أيدى العوام مع كبير أولاده بهجوم شن على داره في الكاظمية ، وسلمت جثته إلى السكان للعبث بها » [2].

وقد كان العالم الإخباري المقتول صريحا في قوله ، يقول عنه الطالقاني :

« الإخباري تمادى في غيه وتوسع في اتهاماته لأساطين العلماء ونسبة الآراء الفاسدة والفتاوى المفتعلة القذرة لهم ، كنسبته القول بجواز اللواط إلى السيد محسن الأعراجي ، ونسبته أمثال ذلك إلى الشيخ أبي القاسم القمي ، والسيد على الطباطبائي وغيرهما » [3].

فغضب كاشف الغطاء من العالم الإخباري ، فألف كتابه : « كاشف الغطاء عن معايب الميرزا محمد الأخباري عدو العلماء » ، فقام الشيخ الإخباري وردَّ على كاشف الغطاء بكتاب سماه : « الصيحة بالحق على من

---

(١) « الشيخية » ، ص : (٣٩) .

(٢) « الشيخية » ، ص : (٤٠) .

(٣) « الشيخية » ، ص : (٤١) .

أَلحد وتزندق »[1] !

يقول الطالقاني : « ولـمَّا توفي كاشف الغطاء بمرض الخنازير ، قال الإخباري : مات الخنزير بالخنازير . هكذا كان الإخباري يرد »[2] .

وقد اشتعل الخلاف الداخلي بين الشيعة « الإخبارية والأصولية » وتأججت الأمور ، واستفحلت المهاترات ، حتى أدت إلى ما لا يخطر ببال .

يقول الطالقاني : « حتى أدت إلى هتك البعض لحرمة البعض ، وانتقاص كل واحد الآخر . وكان كل فريق يرى وجوب قتل الفريق الآخر ، وتطورت القضايا إلى أمور شخصية بحته تقريبا ، فكان كل من الخصمين يهدف إلى الانتقام من خصمه والتطويح به »[3]!

ثم بعد مدة من الزمن توقف الصراع الثنائي مؤقتا لوجود عدو مشترك بينهم ، وهي فرق الشيخية ـ شيخها أحمد الأحسائي الذين اهتموا بالمعرفة الروحانية ، والعلوم الفلسفية ـ التي أدى ظهورها إلى اتفاق الإخبارية والأصولية ضد هذا الخصم الجديد !

يقول الطالقاني : « كتب الرغاني الشهيد الثالث إلى علماء كربلاء بأنه كفر الأحسائي وطلب متابعتهم في ذلك ، فاستجابوا وارتفعت الأصوات

---

(١) انظر : « روضات الجنات » ، الخونساري : (١ / ٥٢) ، و « الذريعة إلى تصانيف الشيعة» : (٧ / ٣٨) .

(٢) « لباب الألقاب في ألقاب الأطياب » ، ص : (٨٧) ، و « قصص العلماء » ، ص : (١٣٣) ، و « الشيخية » ، ص : (٤٢)

(٣) « الشيخية » ، ص : (٤٢) .



معلنة كفره وصار الناس في حيرة مما حدث ، ثم سادت الخصومة وتوسع الخلاف ، وظهر لدى الشيعة مبدأ جديد ، وقبرت خلافات الإخباريين والأصوليين ، وحلت محلها الشيخية وخصومها »[1].

وتوالت التكفيرات من كل من حدب وصوب ، فقد كفره السيد الطباطبائي ، والسيد مهدي ، والشيخ محمد جعفر شريعة مداري ، والمولى أغا الدربندري ، والمازندراني ، و السيد إبراهيم القزويني ، والشيخ حسن النجفي ، والشيخ محمد حسين الصفهاني .

ثم جرت بعد ذلك مقتلة رهيبة بين الطرفين ، وامتدت المجازر الفظيعة إلى كل دارس ومدرس للمعرفة الروحية والعلوم الفلسفية في إيران ، وأصبح حضور تلك الدروس من أعظم الجرائم ، وأكبر الكبائر !

يقول الطالقاني : (ما سجله التاريخ عن تلك المجزرة : أن شاعرا من أهل كاشان اسمه « باقر خرده ئي ») ، كان من تلاميذ محمود النقطوي رئيس أحد تلك المكاتب الفلسفية ، وقد تذرع بعذر قبيح طلبًا للسلامة ، ذلك أنَّه ادعى امتهان اللواط والهيام بغلام أمرد من تلامذة النقطوي ، وأنَّه يتردد إلى المكتب ليحاول الفسق بالغلام لا طلبًا للعلم ، وقد شفع له بعض علماء خراسان وأيدوا ادعاءه فعفي عنه ونجا من الموت !

ومن الخزي أن يسجل التاريخ في حكم عباس الصفوي هذه المثلبة ، وأن الانحراف الخلقي والشذوذ الجنسي ، أهون لديه من طلب المعرفة»[2].

---

(١) « الشيخية » ، ص : (١٠٠) .

(٢) « الشيخية » ، ص : (٣٣٦) . وانظر : « الذريعة إلى تصانيف الشيعة » : (٧/ ٢٦٥) .



أقول : انظر إلى أين وصل مستوى الخصومة بين شيوخ الشيعة ! هتك الأعراض ، واتهام باللواط والفواحش ، وتصدير لفتاوى التكفير والفسوق ، وتشجيع على القتل وسفك الدماء ، ثم مطاردة المخالفين في أماكنهم واجتثاثهم وتصفيتهم جسديًّا ، حتى أصبح فعل اللواط بالغلمان عند بعض علماء الشيعة أهون من حضور دروس المخالفين لهم !



الخاتمة

أخي القارئ الكريم .. قد وقفت بنفسك على سيرة ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ورأيت حياة الرجل وعلمه وصدقه وزهده، وتضحيته وتفانية في خدمة ووحدة الأمة الإسلامية. ثم وقفت بنفسك على أقواله في مسألة التكفير، وقرأت سيرته السلوكية والأخلاقية تجاه المخالفين، ورأيت كيف كان رحيمًا شفيقًا متسامحًا مع مخالفين وشانئيه، يسعون له جادين بالعداوة والبغضاء والكراهية، وهو يسعى لهم بكل صدق بالمحبة والأخوة والتسامح.

ثم إنَّك يا أخي القارئ الكريم وقفت على جملة من أقوال بعض علماء الشيعة حول مسألة التكفير، ورأيت حجم الإقصاء عندهم، ومدى غلوهم أو اعتدالهم في مسألة التكفير. وأنا الآن وبعد المقارنة بين الحالين وبين الخلفين أترك لك أخي القارئ الكريم الحكم الموضوعي من خلال النصوص الموثقة والأقوال المعتبرة للطرفين، لترى هل أنصفوا ابن تيمية أم ظلموه ؟

نسأل الله أن يوفق الجميع للحق والهدى، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرنيا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، وصلى الله وسلم على نبيا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



موضوعات الكتاب